

مُحَمَّدٌ نُورٌ بَابُهُ عَلِيٌّ

المكتبة الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين

وكتبه الطائفة العلمية الفلانية الكريمة

والجليل

سلسلة إصدارات المركز العالمي للتصوف والدراسات الروحية



مُحَمَّدٌ نُورٌ، بَابُهُ عَلِيٌّ



اسم المنجز: مُحَمَّدٌ نُورٌ بَابُهُ عَلِي
تأليف : السَّيِّدُ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ نَهْرُو الْكَسَنَزَانُ الْقَادِرِيُّ الْحُسَيْنِيُّ
جنس المنجز: تصوف
المساعدة في الإخراج العلمي: د. نضال البغدادي
مراجعة وتدقيق لغوي نهائي: د. بكور عاروب
تصميم الغلاف والإخراج الفني: علي كاني
الطبعة الأولى: 2025
القياس : 17 * 24 سم
عدد الصفحات : 221

بطاقة

239

ك. 595 الكسنزان . السَّيِّدُ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ نَهْرُو
مُحَمَّدٌ نُورٌ بَابُهُ عَلِيٌّ / السَّيِّدُ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ نَهْرُو
الْكَسَنَزَانُ الْقَادِرِيُّ الْحُسَيْنِيُّ
بغداد: دار رائد المعنى للطباعة والنشر والتوزيع 2025م
(217ص) – (24 سم)
1- السيرة النبوية – 2- علي بن ابي طالب (عليه السلام) -
الامام الأول- اهل بيت النبي - أ - العنوان

رقم الايداع

3850 / 2024م

المكتبة الوطنية / فهرست اثناء النشر

تنفيذ الانجاز... طباعة وتصميم (دار رائد المعنى) العراق – بغداد

هاتف: 07744608640 (وتس آب - تلكرام)

www.rm-books.com

info@rm-books.com

rmbooks1st@gmail.com

جميع حقوق النشر محفوظة للمؤلف – ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة النسخ أو الطبع
أو إعادة إصدار هذا الكتاب دون إذن خطي من أصحاب الحقوق .

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية، دار الكتب والوثائق ببغداد (3850) لسنة 2025

الناشر / دار رائد المعنى / للطباعة والنشر والتوزيع 2025م

تصوف

مُحَمَّدٌ نُورٌ بِأَبِهِ عَلِيٌّ

السَّيِّدُ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ نَهْرٌ وَالْكَسْتَرَانُ

الْقَادِرِيُّ الْحُسَيْنِيُّ

رَئِيسُ الطَّرِيقَةِ الْعَلِيَّةِ الْقَادِرِيَّةِ الْكَسْتَرَانِيَّةِ

فِي الْعَالَمِ

سلسلة إصدارات المركز العالمي للتصوف والدراسات الروحية

في الطريقة الكسنزانية [2]

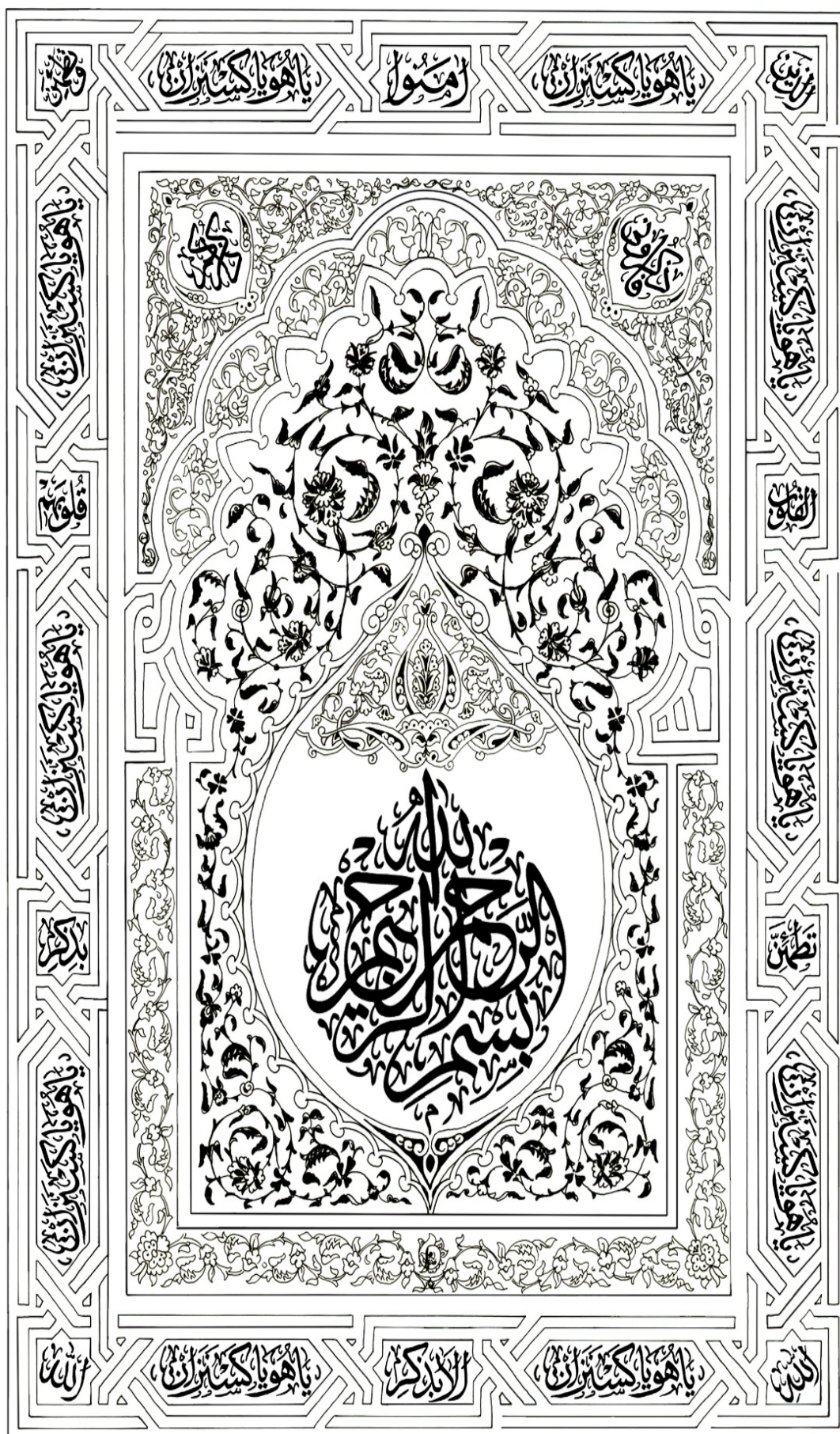
طبعة أولى 2025م

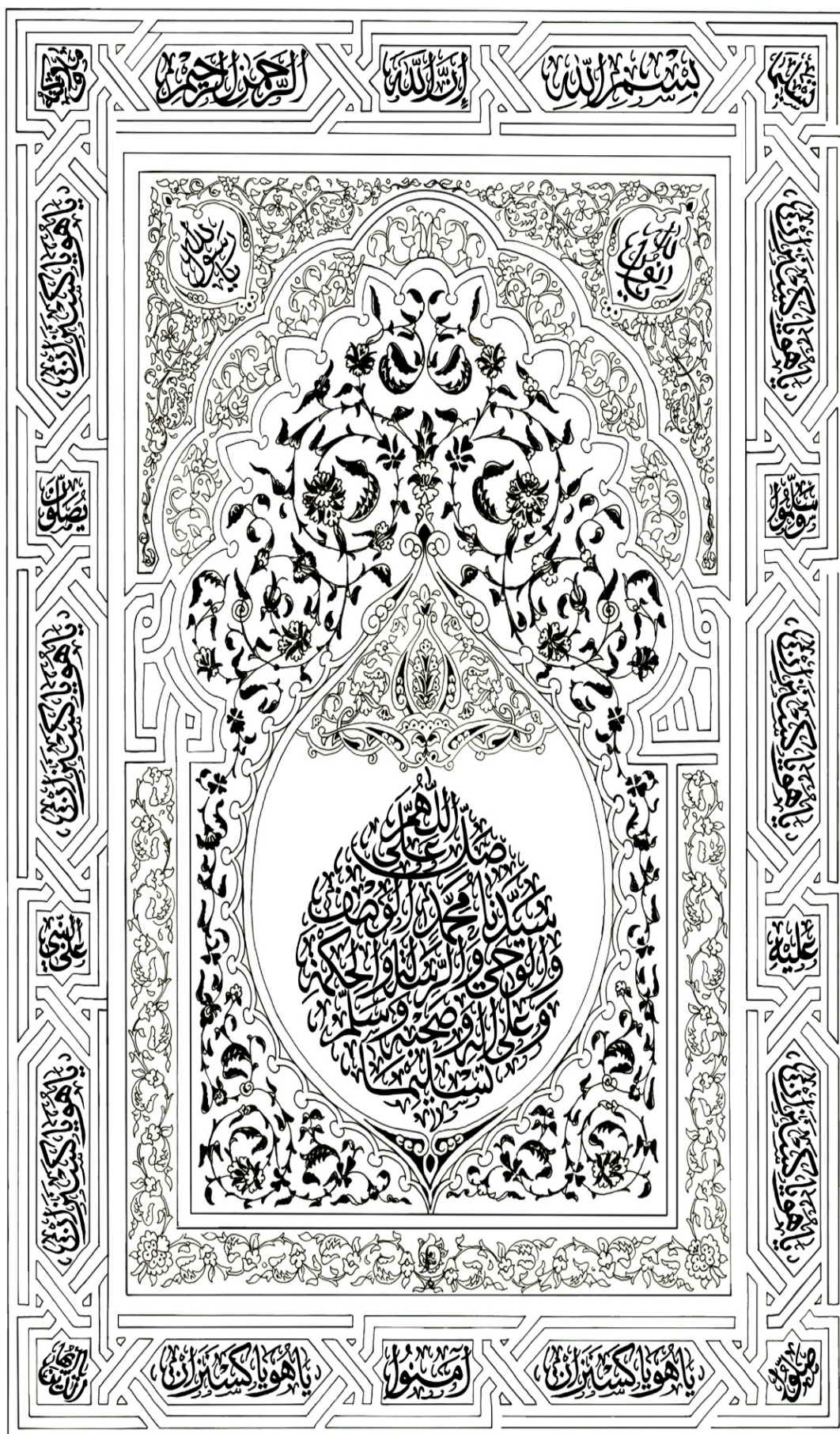


إِهْدَاءُ

يَا سُلْطَانَ الْحَقِّ، يَا حَامِلَ لِوَاءِ الْهُدَى، يَا مَنْ
رَفَعْتَ رَايَةَ الْمَحَبَّةِ فَوْقَ كُلِّ طَائِفَةٍ وَمَذْهَبٍ،
وَجَمَعْتَ الْقُلُوبَ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، فَصَارَ
الطَّرِيقُ بِكَ مَأْوًىً لِلسَّالِكِينَ، وَمَلَاذَأً لِلْحَائِرِينَ،
وَنُوراً لِلْعَالَمِينَ.

إِلَيْكَ، يَا مَوْلَانَا، أُهْدِي هَذَا الْكِتَابَ...
وَفَاءً لِمَا غَرَسْتَهُ فِي الْقُلُوبِ مِنْ مَحَبَّةٍ،
وَاعْتِرَافاً بِمَا أَفَاضَهُ اللَّهُ بِكَ عَلَيْنَا مِنْ أَنْوَارِ
التَّزْيِينِ، وَعَهْداً مُتَجَدِّداً عَلَى السَّيْرِ بِنَهْجِكَ،
وَالْوَفَاءِ بِأَمَانَةِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي حَمَلْتَنَا إِلَيْهَا،
حَتَّى نَلْقَى اللَّهَ وَقَدْ صَدَقْنَا مَا عَاهَدْنَاهُ عَلَيْهِ.





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المُقَدِّمَةُ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمد، الوصفِ والوحي والرسالة والحكمة، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعدُ، فإن من اللحظات المباركة التي انطبعت في القلب والعقل، تلك التي أبلغنا فيها حضرةُ السلطان الخليفة محمد المحمد الكسنزان (قدست أسرارهِ المباركة) عمّا كُشف به في فجر أحد الأيام، حين كان، كعادته، في سكون الأسحار، جالسًا في خلوته، يسبِّح ربّه، وقد استغرق في الذكر حتى لم يبقَ بينه وبين النور حجاب.

وفي واحدة من تلك اللحظات التي تسبق الأذان، حيث يكون القلب أقرب، والسماء أوسع، والروح أكثر شفافية، سمع منادياً يعلو من جهة السماء بصوتٍ مهيب لا لبس فيه، يقول "مُحَمَّدٌ نُورٌ بَابُهُ عَلِيٌّ". لم تكن الكلمة رؤيا باطن، ولا وميض خاطر، بل نداءً صريحاً يتردد كأذان الفجر، تسمعه الأذن وتشهده الروح.

تكرر النداء ثلاثاً، بنفس النغمة، وبذات الجلال:

"مُحَمَّدٌ نُورٌ بَابُهُ عَلِيٌّ.. مُحَمَّدٌ نُورٌ بَابُهُ عَلِيٌّ.. مُحَمَّدٌ نُورٌ بَابُهُ عَلِيٌّ"

كان من شِدَّة وضوح الصوت أن ظنَّ (الخليفة مُحَمَّد المُحَمَّد) في اللحظة الأولى أن النداء قد أُذيع من مآذن السماء، أو أن منابر الأرض بدأت تردّد ذلك الإعلان قبل النداء لصلاة الفجر.

كان ذلك الموقف - بما فيه من جمال العبارة وجلال الإشارة - بمثابة إشعار إلهيٍّ، يرسم ملامح رؤيةٍ روحيةٍ وُلدت لتُسَطَّر، وتُقدِّم هديّةً لمن صدّقوا في محبتهم لجدنا وسيدنا رسول الله محمد ﷺ، وتمسكوا بولائهم لمقام جدنا وسيدنا الإمام علي عليه السلام.

إن ما وراء هذا الكشف المبارك، حقيقة تتوارى خلف العناوين والمذاهب، لتُعلن أن محمّداً ﷺ هو النّور، وأن باب هذا النّور باقٍ في الزمان، متجلّ في الولاية، ظاهر في كل من فنى في العهد العلوي وورث المدينة المحمّدية بحق.

ومن هذا النداء ولدت فصول هذا الكتاب، لا كتأريخ، ولا كجدل، بل كإعادة فتح لباب النّور في زمنٍ تتأثر فيه الغبار على الأسماء، وكأن الصوت الإلهي يقول: ما زالت مدينة العلم المحمّدي قائمة، وما زال بابها الإمام عليّ عليه السلام، ومن أتى من خلاله فقد دخل النّور، ومن عبر منه، عبر إلى المحبة، والعلم، والحكمة، والتزكية.

هذا الكتاب إذاً هو محاولة للسير على أثر ذلك النداء، وكل فصل فيه ليس شرحاً، بل جوابٌ على سؤال مَسكوت عنه، من قبيل:

لماذا نكتب عن الامام علي عليه السلام في هذا العصر؟

إذا كان النّور المحمّدي مُرسَل رحمة للعالمين، فما الضرورة لجعل باب بينه وبين الناس؟

لماذا نحتاج إلى باب لمدينة الرسول ﷺ وعندنا مئات بل الآلف الرواة الذين اوصلوا لنا علمه؟

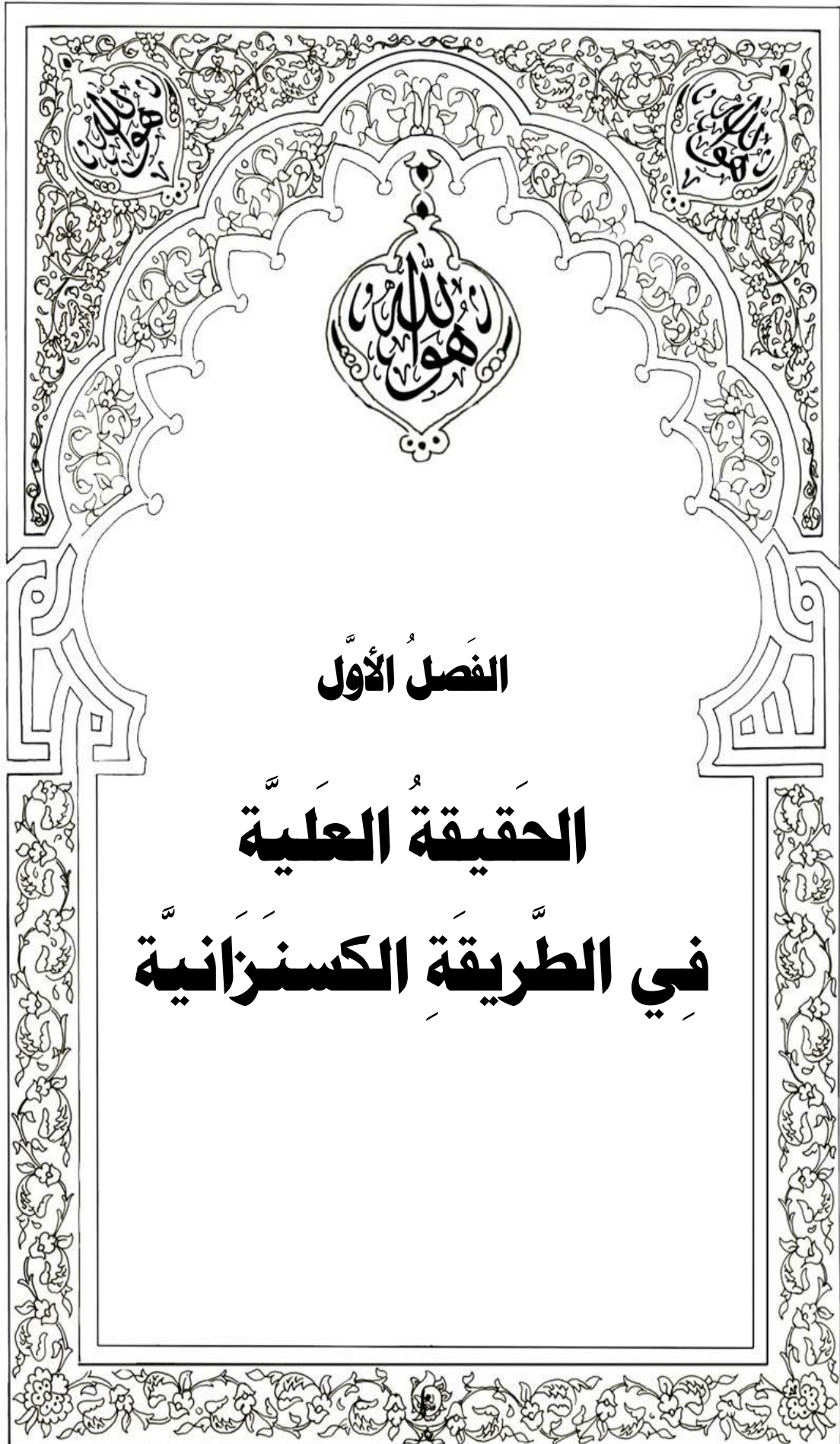
ما سنقوم به في هذا الكتاب: أن نسير على أثر ذلك النداء السماوي لحضرة السلطان (قدس سره)، فنكشف عن دلالاته في ضوء القرآن الكريم، وصحيح المرويات المطهرة، وأن نستنطق إشاراتِهِ في سيرة الإمام علي عليه السلام، لنري العالمين، كيف ظلّ النّور المحمّدي سارياً عبر باب فتحه الله تعالى للناس كافة، وجعل له ورثة في كل زمن.

سنكتب لا لنُكرّر، بل لنُوقظ، لا لنُجادل، بل لنُدلّ، لا لنضيف إلى المكتبة عنواناً، بل لنجعل من هذا النصّ سبيلاً لتجديد العهد، واستعادة الصلة، وفتح نافذة تطلّ من جديد على المدينة المنورة.

مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

كل فصل من فصول هذا الكتاب هو محاولة صادقة لإظهار أن سيدنا محمد ﷺ لم يزل نوراً حياً بيننا، وأن علياً عليه السلام لم يزل بابه المفتوح، قائماً بالحق، وأن من تربى على هذا العهد، لم يزل يحمل السرّ، لمن شاء أن يدخل، وأن يشهد مع الشاهدين.





الفصل الأول

الحقيقة العلية
في الطريقة الكسنزانية

الإمام عَلِيٌّ .. التَّارِيخُ الحَاضِر

لربّما يقال: لماذا نكتب عن الإمام علي (عليه السلام) في هذا العصر؟
ما الفائدة من العودة إلى استحضار سيرة مضت عليها قرون؟
أليس من الأجدر أن ننشغل بما ينفعنا في واقعنا، وأن نوجّه همّتنا
نحو صناعة المستقبل؟

ألا يبدو الأمر وكأننا نسير على سبيل من أنكفأ على أحلام الآباء
والأجداد، وفصل نفسه عن حركة التاريخ الحيّة؟
هذه الأسئلة - على وجاهتها الظاهرية - تُخفي ارتباكاً مُضمراً في
بنيتها، وذلك أن قائلها يخلطون بين سيرة من انقضى دوره ومضى،
وبين من لم يغيب نوره مُذ كان.

كذلك يخلطون بين اجتراح التاريخ من أجل الكسب الدنيوي
(السياسي)، وبين استحضار النور من أجل السير الأخروي.
لذلك أقول: إننا لا نكتب عن الإمام علي (عليه السلام) لنعيش في الماضي، بل
لأن نوره الممتد لا يزال هو المفتاح لنحيا الحاضر.

في الواقع -ولا أصدق من شهادة الواقع- إنّ الذين ساروا على خطى
الإمام علي (عليه السلام) الحقّة، هم الذين لم يخرجوا من التاريخ، بل بالعكس
فتحوا فيه صفحة ممتدة إلى الآن، بخلاف مخالفه، وكما سيتبين هنا
لمن فاته ذلك.

إننا نكتب عن الإمام علي (عليه السلام)، لأننا نعيش في زمنٍ اختلطت فيه
الرموز بالصراعات، فانعكس ذلك عليه حتى عدّه بعضهم؛ حدثاً في
التاريخ، أو رمزاً طائفيّاً، أو سيرةً منزوعةً الروح .. أو ما شابه.
في حين أن الحق غير ذلك تماماً، فالإمام عليّ ليس ماضٍ
يُستحضر، بل حضورٌ يتجلّى، ويتجدد.

نكتب عنه اليوم، لا لأن سيرته مجهولة، بل لأن حقيقته مغيّبة تحت
ركام التأويلات الجافة، والخطابات المتوترة، والتوظيفات السياسية
التي جعلت منه ساحة للصراع لا مرآة للصفاء.

نكتب عنه كما نراه وتتعايش معه حقيقة، لا كما توارثوه وكأنه أسطورة
تتردد على الألسن في المجالس وعلى المنابر بلا وعي ولا أثر واقعي.

نكتب عنه كما نقوم به، لا كما يُتنازع عليه.

نكتب عنه لينكشف للناس امتداد الحقيقة المحمدية وتواصلها في
سلسلة الولاية، لا كما يراد تصديره المستضعف المغلوب على أمره،
هو وأهل بيته (صلوات ربي وسلامه عليهم جميعاً).

عليّ وما أدراك ما عليّ...!

علي هو جوابٌ روحيّ لفوضى العصر.

هو التوازن المفقّد.

هو العمق الذي يحتاجه الناس للخروج من سطحية الانفعال
الشعائري إلى حكمة التأمل العملية.

إننا لا نكتب عن الإمام عليّ عليه السلام لبنني جداراً آخر من الاصطفاف، بل
لنفتح نافذةً إلى القلب.

نكتب عنه لا لأننا في طائفة، بل لأننا في طريق.

نكتب عنه لا لتأكيد الانتماء، بل لتثوير الرؤية نحو الإنسان الكامل.

نكتب عن الإمام عليّ لأن نوره لا يزال حيّاً بيننا، بل فينا، في سلسلة
العهد التي به بدأت ولم تنقطع.

نكتب عنه عليه السلام لأننا نريد أن نوصل رسالتنا للناس كافة، وأن نعلّم
أبناء هذا الطريق خاصة، أن الولاية ليست أمراً غيّبه التاريخ، بل هي
حضورٌ حيّ يتجلّى في من يحملون السرّ.

مُحَمَّد نور بابه عَلِيّ

ونكتب عنه عليه السلام لأن كل مريد صادق يحتاج أن يعرف أن الطريق الذي يسير فيه لا يبدأ من الخيال، بل من رجلٍ عارف، عاشق، عادل، زاهد، فقيه، حكيم، متواضع، قوي، نقي، حق، لم يزل قائماً – هو مولانا عليّ (صلوات ربي عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً).

نكتب عنه اليوم لأن الأمة تحتاج إلى مرآة ترى فيها نفسها، لا كما صارت، بل كما يمكن أن تكون، وكما عليها أن تكون.

نكتب عنه لأنه لم يكن في يوم من الأيام دعوةً إلى هوى نفس أو حق شخصي، بل معبراً صادقاً نحو الله سبحانه وتعالى، وليس إلا هو.



الأصل فيما نقول: إنك إن آمنت بالولاية، قادتك ذلك الإيمان إلى بابها في هذا الزمان.. ومنه تدخل إلى مدينة العلم المحمدي، كما فعل السابقون.. فالباب حاضر يتفاعل مع الزمن ويؤثر في قلوب أهل العصر، وليس مجرد رواية لتاريخ قضى ومضى..

هذا هو الحق كما هو.. وهذه هي الحقيقة كما هي.. الإمام علي عليه السلام بدلالة أنه باب مدينة العلم المحمدي: حاضرٌ متجددٌ.

التمسك به مستمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام لها.. قابضاً بيد العهد على حاضره، مؤسساً لمستقبله.

الإمام عليّ.. الضّرورة المُتجدّدة

الضرورة: هي كل ما لا يتم الأمر الا بها.
مثل ذلك: الماء ضرورة للحياة، بمعنى أن الحياة لا تتم، بل لا تكون إلا بوجود الماء.
عند أهل الطريقة، وجود الإمام عليّ عليه السلام وتحققه بمقام (باب مدينة العلم المحمدي) ضرورة لديمومة الجانب الروحي في الدين كله.
قد يعترض معترض ويقول: هل الأمر كذلك حقاً؟
إن كان النور المحمدي هو الأصل، وهو محور الوصول والحصول، ومصدر الهداية، فما الحاجة إلى الإمام عليّ عليه السلام؟
ولماذا جُعِلَ باباً، إذا كان كل شيء موصولاً بالرسول ﷺ؟
أليس سيدنا محمّد ﷺ هو الرحمة، والنور، والنبوة، والمثال الكامل؟
فلماذا لا نكتفي به فحسب؟
ثم أين الدليل على ذلك كله في التنزيل الحكيم؟
نقول: في الوقت الذي نعد هذا الاعتراض قائماً على تساؤلات وجهية نظرياً، إلا أننا وفي الوقت نفسه، نرى أنه يُغفل أصلاً قرآنيّاً وروحياً عميقاً هو: (خاتمية النبوة المحمدية).
الخاتمية لا تعني الآخريّة، بل تعني تصديق ما سبق، والهيمنة على ما لحق ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾⁽¹⁾.

مُحَمَّد نور بابه عَلِيّ

فالنبوة المحمدية ليست مصدقة لما سبق فقط، بل هي ممتدة إلى ما يلي زمان الظهور المحمدي المبارك، حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

استمرارية فاعلية النور المحمدي في الأزمان اللاحقة، توجب إتخاذ إجراء يحقق ذلك، وما دامت النبوات قد توقفت، فلا بد من وكيل يخلف مقام الأصيل، فكان الباب برمزيته الدالة على هذا المنصب الروحي. وكانت هذه ضرورته الموجبة.

هنا تتجلّى الحكمة الإلهية في بابية الإمام عليّ (عليه السلام)، فهو ليس زيادة على النور، بل تجلّ له في مرتبة القرب الممكنة للبشر بعد النبوة. فبينما يبقى سيدنا محمد (صلى الله عليه وآله) في مقام الرسالة الكاملة، جاء إمامنا عليّ إعلاناً واضحاً لفتح باب الوراثة الروحية، التي تضمن بقاء النور فعلاً، وسارياً، ومتلائماً مع مسيرة الإنسان في الزمن.

إننا لا نحتاج إلى الإمام علي بدلاً عن النور المحمدي، بل نحتاج إليه ليمدّ جسور التوصيل إليه.

فكما أن الشمس لا تُدرك بالعين المجردة، لكنها تُرى في انعكاساتها على الماء الصافي، فكذلك نور النبي (صلى الله عليه وآله) لا يُدرك بحقيقته الكاملة، لكنه يُشهد متجلياً في من فني فيه، وأولهم مولانا الإمام عليّ (عليه السلام).

فلو تم الاكتفاء برسالة النبي (صلى الله عليه وآله) دون تعيين هذا الباب، لانقطعت وراثته السر، ولصار الحديث عن النور المحمدي مجرد تكرار لفظي، لا حضوراً حياً. أما تعيين الإمام عليّ، فكان ضرورة، وكان إعلاناً بأن هذا النور باقٍ في الأرض من خلال ورثته.

إن الطريقة الكسنزانية، وكل الطرق التي تتصل بسلسلة التربية الروحية، هي امتداد فعليّ للنور المحمدي عبر الوراثة، الذين تفتحت فيهم أنوار العهد، وصاروا يُذكّرون بالله من غير ادّعاء وكل وارث في

هذه السلسلة إنما يستمد من عليّ، وعليّ يستمد من محمد ﷺ،
والنبي ﷺ من الله تعالى، فكلّهم على خطّ واحد، لكن المقامات
متكاملة، لا متكرّرة

وعليه، فالحاجة إلى الإمام عليّ، بوصفه أول الورثة، هي في الحقيقة،
حاجة ضرورية لاستمرار الفتح، لا إلى تأسيس جديد، حاجة إلى حفظ
خط النور من أن يُختزل في الكتب، أو يُستهلك في الفتن، أو يُنسى في
زحمة الأجيال.

إننا نرى بل نوقن: أن الإمام عليّ عليه السلام هو الضمانة الأولى بأن هذا النور
لن يُطفأ، بل سيُحمَل، ويورَث، ويُفعل في كل زمان، بوجوه تختلف،
وقلوب تتجدّد، لكن كلها تلتقي في الباب الأول، ليبقى مفتوحاً إلى يوم
الدين.



الإمامُ عَلِيٌّ.. الْمُزَكِّيُّ الْمُتَجَدِّدُ

يتردد البعض في قبول ضرورة الإمام علي عليه السلام والورثة من بعده، ذاهبين إلى القول: أن النبي صلى الله عليه وآله وحده يكفي، وأن الكتب والشُّنن والروايات التي دُوِّنت من بعده قادرة على أن تحمل رسالة الإسلام بكل أبعادها.

وقد يستدلون على ذلك: بأن بعض المذاهب الإسلامية استندت إلى الروايات النبوية ولم تتخذ من الإمام علي عليه السلام مرجعاً روحياً، ومع ذلك فإنها تطبق الدين وتسير على هدي سيد المرسلين صلى الله عليه وآله، فالواقع مفند للضرورة المزعومة.

فنقول: الحقيقة العميقة المستمدة من القرآن الكريم، تكشف أن ما بُعث به النبي محمد صلى الله عليه وآله لم يكن مجرد نصوص تُحفظ، بل حالٌ يُورث، وسرٌّ يُتلقَى، وتزكيةٌ تُمنح من قلبٍ إلى قلب، لا من لسانٍ إلى أذانٍ، ولا من كتابٍ إلى ذهنٍ.

قال الله تعالى في وصف مهام النبي صلى الله عليه وآله: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾⁽¹⁾، وهذا البيان الإلهي لا يشير إلى مجرد التبليغ بالتلاوة القولية، بل إلى فعلٍ مستمرٍّ من التعليم والتزكية والتربية.

لم يكن النبي صلى الله عليه وآله يعظ أصحابه فقط، بل كان يُربيهم من قرب، يسكب في قلوبهم النور، ويعلمهم الحكمة بحضوره، ويزكي باطنهم بنظراته، وفي سكوته كما بكلامه.

فهذا النوع من التربية الروحية لا يُورَث بنقل النصوص، بل بالاتصال الروحي، بالحال، بالصحة، وهو ما لا تقدر عليه المدونات مهما بلغ التدقيق في صحتها.

بكلمات أخرى: إن الروايات التي تُتناقل بعد النبي ﷺ، مهما بُذل في جمعها وتصحيحها، يظلّ كثير منها ظني الثبوت، محتمل للوضع، مختلفة في التفسير، محدودة في التأثير، وهو ما اتفق عليه أئمة الحديث أنفسهم.

ومن ذلك ما تقرر لدى الأصولي ابن قدامة من: أن خبر الآحاد لا يفيد العلم اليقيني، وإنما يفيد الظن الغالب، ولذلك لا يُعمل به في الأصول التي لا تقبل إلا اليقين، بل يعمل به في الفروع التي تقبل الظن. ويؤكد أن كل واحد من المخبرين يجوز عليه الغلط، ولذلك لا يجوز قبول خبر الآحاد فيما طريقه العلم اليقيني⁽¹⁾.

وجاء في (شرح التبصرة والتذكرة) للحافظ العراقي: «حيث قال أهل الحديث: هذا حديثٌ صحيحٌ، فمرادُهُم فيما ظهرَ لنا عملاً بظاهر الإسناد، لا أنَّه مقطوعٌ بصحته في نفس الأمر، لجواز الخطأ والنسيان على الثقة، هذا هو الصحيح الذي عليه أكثر أهل العلم»⁽²⁾.

وبالتالي، فإن بناء الدين على مجرد النقل هو بناء على ما لا يُجزم به، وإن تزّين بالنية الحسنة.

1 - ابن قدامة، روضة الناظر وجنة المناظر، تحقيق: عبد العزيز السيروان، دار النفائس، بيروت، ج 1، ص 328

2 - عبد الرحيم العراقي، شرح التبصرة والتذكرة (شرح ألفية العراقي المسمّاة بالتبصرة والتذكرة)، تحقيق: عبد اللطيف الهميم وماهر ياسين الفحل، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1423هـ-2002م، ص 38.

مُحَمَّدٌ نَوْرُ بَابِهِ عَلَيَّ

أما الجانب الذي لا يحتمله النقل، فهو الجانب الروحي في البعثة وهو تعليم الحكمة، والتزكية الباطنية، فهذا لا يتم عبر نطق الأوراق، بل بواسطة أحوال الرجال، كما كان عليه الشأن في الصدر الأول.

على سبيل المثال: عن ابن عباس قال: ضمنى النبي ﷺ إلى صدره وقال: ﴿اللهم علمه الحكمة﴾⁽¹⁾. فكان ابن عباس من أكابر علماء الصحابة في التفسير.

في عام الفتح، كان فضالة بن عمير الليثي قد نوى قتل النبي ﷺ غدرًا وهو يطوف بالكعبة. اقترب فضالة من النبي ﷺ متظاهراً بالذكر، فالتفت إليه النبي وقال: أفضالة؟

قال: نعم.

قال: ماذا كنت تحدّث به نفسك؟

قال: لا شيء، أذكر الله.

فضحك النبي ﷺ ثم قال: «استغفر الله»، ووضع يده على صدره، فسكن قلبه، عندئذ قال فضالة في ما بعد: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحبّ إليّ منه أي من رسول الله. هذه الحادثة فيها تزكية بمعنى التطهير؛ إذ أزال النبي ﷺ ما في نفس فضالة من سوء بوضع يده الشريفة ودعائه له، فانقلب حاله إلى محبة وإيمان⁽²⁾.

1 - صحيح البخاري، اعتنى به: دار الكمال المتحدة، الناشر: عطاءات العلم - موسوعة صحيح البخاري، 1437هـ، حديث رقم [3756]، ج3 ص416.

2 - ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: السقا، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1955، ج2 ص417.

جاء شاب في مقتبل العمر إلى النبي ﷺ في مجلسه وبين الصحابة وقال بجرأة يا رسول الله ائذن لي بالزنا!

فثار الصحابة ومنعوه وأنكروا عليه بشدة، لكن النبي ﷺ بحليم ولطف قال: ادنّه.

فاقترب الشاب، ثم سأله النبي ﷺ: أتحبّه (أي الزنا) لأمك؟

قال: لا والله جعلني الله فداك، وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم. ثم سأله عن ابنته وأخته وعمته وخالته، وفي كل مرة يقول الشاب: لا، جعلني الله فداك. فأقرّ الشاب بأن الناس كذلك يكرهون الزنا في أهاليهم. حينها وضع النبي ﷺ يده على الشاب وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصّن فرجه. فوالله لم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء (أي من الفاحشة) (1).

هذا الحديث مثال ناصع على تزكية النبي ﷺ لهذا الشاب عملياً؛ فقد طهر قلبه من الشهوة الحرام بدعائه المبارك ولمسه الحاني، حتى صار أبغض شيء إليه هو الزنا بعد أن كان يطلب الإذن فيه.

ولولا أن فُتح بابٌ بعد النبي ﷺ اسمه عليّ الكليّة، لاندثرت سنة التعليم الحيّ، وانطفأت نار التربية الروحية التي بُعث النبي ﷺ لإيقادها.

فالإمام عليّ الكليّة لم يكن بدلاً عن النبي ﷺ، بل وارثاً لما لا يُنقل، حاملاً للباب الذي لا يُفتح إلا بإذن.

الوارث تحقّق بالنور المحمدي، حتى صار في زمانه هو المدينة

1 - ابن الجوزي، جامع المسانيد، تحقيق: الدكتور علي حسين البواب، مكتبة الرشد - الرياض، ط 1، 2005، ج 3 ص 377.

مُحَمَّد نور بابه عَلَيَّ

النبوية بكل أبعادها. فمن رآه، فكأنما رأى النبي ﷺ، فالصور متعددة،
والحقيقة متوحدة.

ومن هنا نفهم الفارق الكبير بين من يتبع النبي ﷺ عن طريق
الأحاديث النقلية والتفاسير البشرية، وبين من يتبعه عبر وارث
روحي حقيقي.

في الحالة الأولى، تبقى احتمالية الخطأ عالية، واحتمالية التزكية
ضئيلة، والحكمة نادرة التحقق، لأن الأصل غائب، والحال منقطع،
والعين لا ترى إلا من وراء تراكم النصوص.

أما في الحالة الثانية، فإن القلب يذوق، والروح تتشرب، والمريد يُربّي
كما ربّي الأولون، لأن النور نفسه قد تموقع بالحاضر، والعهد لم ينقطع،
بل ظلّ يسري في رجالٍ اختارهم الله لحمل ما لا يُكتب.

وهكذا، فالحاجة إلى الإمام عليّ عليه السلام، وإلى سلسلة الورثة من بعده،
هي في حقيقتها حاجةٌ لحفظ نور الوحي حيّاً، فاعلاً، غير مُجرّدٍ من أثره
الباطني.

ولا يقولن قائلٌ: اننا بهذا ندّعي بطلان عمل من أخذ بطريق النقل
فقط، فقائل ذلك يحمّل نفسه وزر افتراءٍ عظيمٍ. إننا نقول: إن الدين
المتوارث عن طريق النقل ليس بكاف لوحده، هو ظاهر يحتاج إلى
باطن، هو حقيقة تحتاج إلى حق، هو قول يحتاج إلى حال. والمؤمن حر
فيما يختار في دينه لأخوته ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾⁽¹⁾.

الإمام عليّ.. أسرار صيرورة الباب

لفهم العلاقة بين النور المُحمدي والإمام عليّ عليه السلام، ثم من بعده العلاقة بسائر الورثة الروحيين في الطريق، لا يكفي أن نتحدث عن الترتيب، أو التسلسل، بل ينبغي أن نُدرك الكيفية التي يتم بها الانتقال النوري، والتحقق بالحقيقة المحمدية المقدسة.

لفعل ذلك نلجأ إلى المثال التخيلي الآتي:

لو أنك طليت حجراً بماء الذهب، سيبدو ذهبي اللون، لكنه يبقى في جوهره حجراً. وإذا قمت بتجويفه من داخله، ثم ملأته ذهباً، وأحطته بالذهب من الخارج، فستبدو هيئته ذهبية، لكنه يظل حجراً في طبيعته، وذهباً في ما أضيف إليه.

لكن لو حصل أمر فريد: لو أنك وضعت الحجر بقرب آخر، ولكن من الذهب الخالص ظاهراً وباطناً، ولو افترضنا أن ذلك الذهب بدأ يُصدر إشعاعات قوية، غمرت الحجر بجواره حتى نفذت في كل ذرة من ذراته، وأحدثت فيه تحوّلاً ذاتياً، فانصهر الحجر الصخري في نفسه، وبدأت بنيته تتفكك تحت فعل الإشعاع، ثم جدد تشكّله تدريجياً على هيئة الذهب نفسه، لا شكلاً فحسب، بل جوهرًا وطبيعة. فما الذي ينتج عن ذلك؟

من الواضح أنه في هذه الحالة، يصبح لدينا ذهبان: ذهبٌ أصليّ، وذهبٌ مُكتسبٌ، أي ذهبٌ مُشعّ، وذهبٌ مُتحوّل بتأثيره، قائم به، لا مستقل عنه. بهذا المنطق يمكن فهم العلاقة بين النور المحمدي والحقيقة العليّة مع الفارق في التشبيه. فالنبي محمد صلى الله عليه وآله هو نور الأصل، النور المُشعّ، المُفيض، الذي به كانت المدينة، وبه كان الفتح، وبه يكون الفيض على من بعده. أما الإمام عليّ عليه السلام، فهو أول من فنى في هذا النور، حتى لم يبقَ فيه من ذاته المطهرة إلا القابلية المطلقة

مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

للتجلي، فصار هو النور، لا تشبيهاً، بل تحققاً⁽¹⁾.

هو ليس غير محمد ﷺ، لكنه ليس هو.

هو ليس ذات الأصل، لكنه صورته القائمة به.

إنه الوصل المتصل بالأصل.

من هنا، نفهم كيف أن الفعل الذي يقوم به واحد من الورثة، فكأنما قام به الجميع. فإذا قالت الآية: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾⁽²⁾، فهي -عندنا- لا تتحدث عن الإمام علي عليه السلام فقط، بل عن كل من تحقق بذلك النور، لأن الفعل الذي يصدر عن أحدهم يصدر بنور المجموع المتصل بالحقبة المحمدية. حين يتحقق الولي بالحال، ينحلّ (أنا) ويذوب في (نحن)، وتبدأ الروح تتكلم بلسان السرّ، بلسان الكل، لا بلسان الفرد. عليه، فإن النور العليّ ليس منفصلاً عن النور المحمدي، بل هو صورته الأقرب، ومثاله القابل لتلقي الولاية بعد ختم النبوة.

1 - أثناء اشتغالنا بهذه الفقرة من الكتاب، وبعد أن عرضنا المثال أعلاه، حدث أن جرى الإعلان عن إنجاز علمي غير مسبوق، يضاهي مثالنا وهو: أن فريقاً من الباحثين في مصادم الهادرونات الكبير (LHC) التابع لمنظمة CERN تمكنوا من تحويل ذرات الرصاص إلى ذهب، وإن كان ذلك لفترة وجيزة لا تتجاوز جزءاً من الثانية. جرى التحول ضمن تجارب مشروع ALICE عبر اصطدامات غير مباشرة بين ذرات الرصاص، حيث أدّى القرب الشديد بينها إلى نشوء مجالات كهربائية ومغناطيسية مزّقت البروتونات من نوى الذرات، ما أدى إلى إزالة ثلاثة بروتونات وتحويل الرصاص فعلياً إلى ذهب بمعدل 89 ألف ذرة في الثانية. لكن هذه الذرات كانت غير مستقرة وتلاشت سريعاً، لتبقى التجربة ذات دلالة علمية أكثر من قيمتها المادية. وقد أكد العلماء أن هذه التجربة لا تفتح باب تصنيع الذهب تجارياً، لكنها تُعدّ اختراقاً مهماً في فهم فيزياء الجسيمات، وتساعد في تطوير النماذج النظرية للتفاعلات الذرية، وتجاوزت بذلك بكثير أحلام الخيميائيين في العصور الوسطى.

2 - [المائدة: 55]

وكل من ورث هذا النور من بعده، من مشايخ الطريق، إنما يتحققون بوصفهم وجوهاً متنوّعة لذلك النور الواحد.

ومن هنا، حين يقال: (أولنا محمد، وأوسطنا محمد، وآخرنا محمد)، فإن المقصود ليس المجاز، بل الحقيقة المتحققة في التوحيد لنوري، أو نور التوحيد.

بذلك، تبقى المدينة قائمةً، ويبقى الباب حيّاً، ويبقى الفيض جارياً، مادام هناك مَنْ ينصهر في النور، لا من يدّعيه، ومَنْ يتّصل، لا مَنْ يتكلّم عنه من وراء حجاب.

تلك هي الحقيقة العلّية في صورتها العملية: ذهب قائم بذهب، نور قائم بنور، روح تذيب في أصلها، ثم تبقى به وتفيض على ما بعدها.

إذن، فحديثنا عن الامام علي عليه السلام هنا: ليس حديث عن ماض، بل عن زمن متصل، زمن سائل، زمن متماهي، زمن له ابعاد متعددة، فهو الماضي الحاضر، وهو الحاضر الآتي.. الجمع والافراد قائمين معا، فعالين بالتتام.

إِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ الْاسْمِ اللَّهِ وَالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، كُلُّ اسْمٍ هُوَ عَيْنُ الْأَسْمَاءِ كُلِّهَا وَهُوَ فِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ غَيْرَهَا.

كذلك الورثة: كل ولي هو عين الأولياء جميعاً من الناحية الباطنية، وهو غيرهم من الناحية الظاهرية. فإن فعل الجسم الظاهر فعلاً كأن يقيم مولداً نبوياً مشهوداً، فالفاعل من حيث الظاهر، هو الشيخ الحاضر، في حين ان الفاعل من حيث الباطن، هم جمعهم.

بهذا المنطق تتبين حقيقة: ﴿عَلِيٌّ مِنِّي وَأَنَا مِنْ عَلِيٍّ، وَلَا يُؤَدِّي عَنِّي إِلَّا أَنَا أَوْ عَلِيٌّ﴾⁽¹⁾.

1 - سنن الترمذي، المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب، حديث رقم 3719

مُحَمَّد نور بابه عَلِيّ

كان احد خلفاء الكسنزان قد احتار في مسألة من يقود الطريقة روحياً، هل هو الشيخ الحاضر بفعله أم المشايخ السابقين بحالهم، فسأل حضرة السلطان محمد المحمد الكسنزان (قُدت اسرارهُ) عن ذلك فقال حضرة السلطان من فوره وكأنه كان ينتظره ان ينطق بتساؤله: "هُم استاذهُ في الباطن وهو استاذهم في الظاهر".

إن كلّ شيخ حاضر يضيف إلى رصيد السابقين بظاهره، وجميع السابقين يمدون الشيخ الحاضر بباطنهم، في عملية تتام نوراني فائق التناظر.

النتيجة التي نخلص اليها هنا يمكن إيجازها في قولنا المحقق:
(الامام علي هو قائم آل محمد في الشيخ الحاضر).



الإمام عليّ.. عَقِيدَةُ كَسَنَزَانِيَّة

يمكن تلخيص عقيدة الطريقة الكسنزانية بشأن (الحقيقة العليّة) في النقاط الآتية:

إن رمزية "مدينة العلم"، لا تشير إلى مكان مادي أو مفهوم ذهني، بل ترمز إلى البعد الروحي الذي احتضنه النور المحمدي بكماله، بما فيه من وحي، وحكمة، وتزكية، وعلوم لدنية لا تُنال بالدرس المجرد، بل بالفتح والإذن.

"المدينة العلم" ليست محصورة في زمن، بل في واقع الحال متعالية على الزمان والمكان، لكنها تقتضي، في كل زمن، إلى من يفتح بابها، وإلا بقيت معالمها مجرد إشارات مغلقة لا تُدرك.

رمزية "الباب"، أنها الواسطة النورانية التي جعلها الله طريقاً موصلاً بين الطالب والمطلوب، بين المرید والحقيقة المحمدية.

من هنا كانت العلة في وجود الباب ضرورة روحية، لا مجرد تفضيل لشخصية تاريخية، وإن كانت تلك الشخصية معظمة في حد ذاتها.

السبب الذي لأجله وجد الباب -أي الوارث الروحي المحمدي- هو بقاء أو استمرار فعالية الدور الذي كان النبي محمد ﷺ في زمانه يؤديه وهو تعليم الكتاب والحكمة والتزكية بالحال.

والعلة في ذلك، هي العدالة الإلهية، إذ ليس من الانصاف، أن يتحقق من عاصر الرسول الأعظم ﷺ بخصائص التزكية وتعليم الحكمة الروحية مباشرة منه ﷺ بلمسته أو نظرتة أو صحبته أو هدايته، بينما يحرم من ذلك جميع المؤمنين اللاحقين إلى يوم الدين.

لهذا، كان من الضروري، بعد انتقاله ﷺ، من قيام وارث يتحقق به هذا المقام، ينوب منابه في إعطاء فرصة التزكية للناس كافة، لا على

سبيل الإنابة الصورية القائمة على نقل النصوص، بل على سبيل التحقق الذاتي بالنور.

وبذلك، فإن الآيات التي تتحدث عن تعليم الحكمة، وتزكية النفس، وسلوك السبيل الروحي، لا يمكن أن تعمل عملها الكامل في النفوس إلا بوجود خليفة عن الحقيقة المحمدية، لا خليفة عن الدولة، ولا مرجع متخصص بالفقه المجرد، بل خليفة عن مقام المدينة، وعن روح النور. فلو ان الخلافة الروحية اختفت، فإن الفاعلية الحية بدورها تختفي، ولا يبقى الا النصوص التي تُقرأ بصورة جامدة دون أن تُبدل، ما يبعد الشقة بين ثبات النص وتطور الواقع.

إذن: الولاية هنا ليست ترتيباً سياسياً، ولا فقهاً مذهبياً، كما إنها ليست مرجعية اجتهاد في الفتوى، بل هي ما وراء ذلك كله، هي الضرورة الروحية الحافظة للنور المحمدي في العالم بعد ختم النبوة.

فإذا كانت المدينة هي الكمال المحمدي، فإن الباب هو الحضور العلوي ظاهراً في عصره، وباطناً في كل عصر من بعده، محققاً حضور الورثة المتزايد أجمعهم مع تقادم الزمن، لا في الكتابة، بل في المربي، والمُذَكِّر، والمُطَهِّر. في الشيخ الحاضر.



خُلَاصَةُ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ

سؤال الزمان المعاصر:

يواجه البعض سؤالاً حول جدوى الكتابة عن الإمام عليّ عليه السلام في هذا العصر، ويُظن أن الحديث عنه هو نكوص للماضي، بينما الحقيقة أن نوره مستمر وحضوره متجدد في قلوب السالكين.

التمييز بين التاريخ والنور:

الإمام عليّ عليه السلام ليس حدثاً تاريخياً يُسترجع، بل هو "باب" روحي مفتوح؛ سيرته ليست للاجتراء، بل للإستلهام الحي في السير إلى الله.

دحض الاستخدام الطائفي والسياسي:

الخطابات السياسية والطائفية شوّهت صورة الإمام عليّ عليه السلام، وجعلته ساحة صراع، بينما هو في الحقيقة "مرآة الصفاء" و"ميزان التوازن".

نظرة الطريق الصوفي:

الطريقة الكسنزانية لا ترى الإمام عليّ عليه السلام رمزاً ماضوياً، بل مصدراً نورياً حياً، يمدّ السلسلة الروحية من عهد النبوة إلى عهد الشيخ الحاضر، فالعلوية ليست شعاراً، بل امتداداً.

الكتابة عنه طريق، لا شعار:

نكتب عن الإمام عليه السلام لا لأننا نتنسب إلى طائفة، بل لأننا سالكون في طريق، طريق الإنسان الكامل الذي جسّد النبوة في العدل والزهد والعلم والروح.

حاجة الأمة اليوم:

في زمن السطحية، يُستدعى الإمام عليّ عليه السلام ليكون مرآة تنعكس فيها إمكانية النهوض الروحي والفكري، لا مرآة للصراع الطائفي.

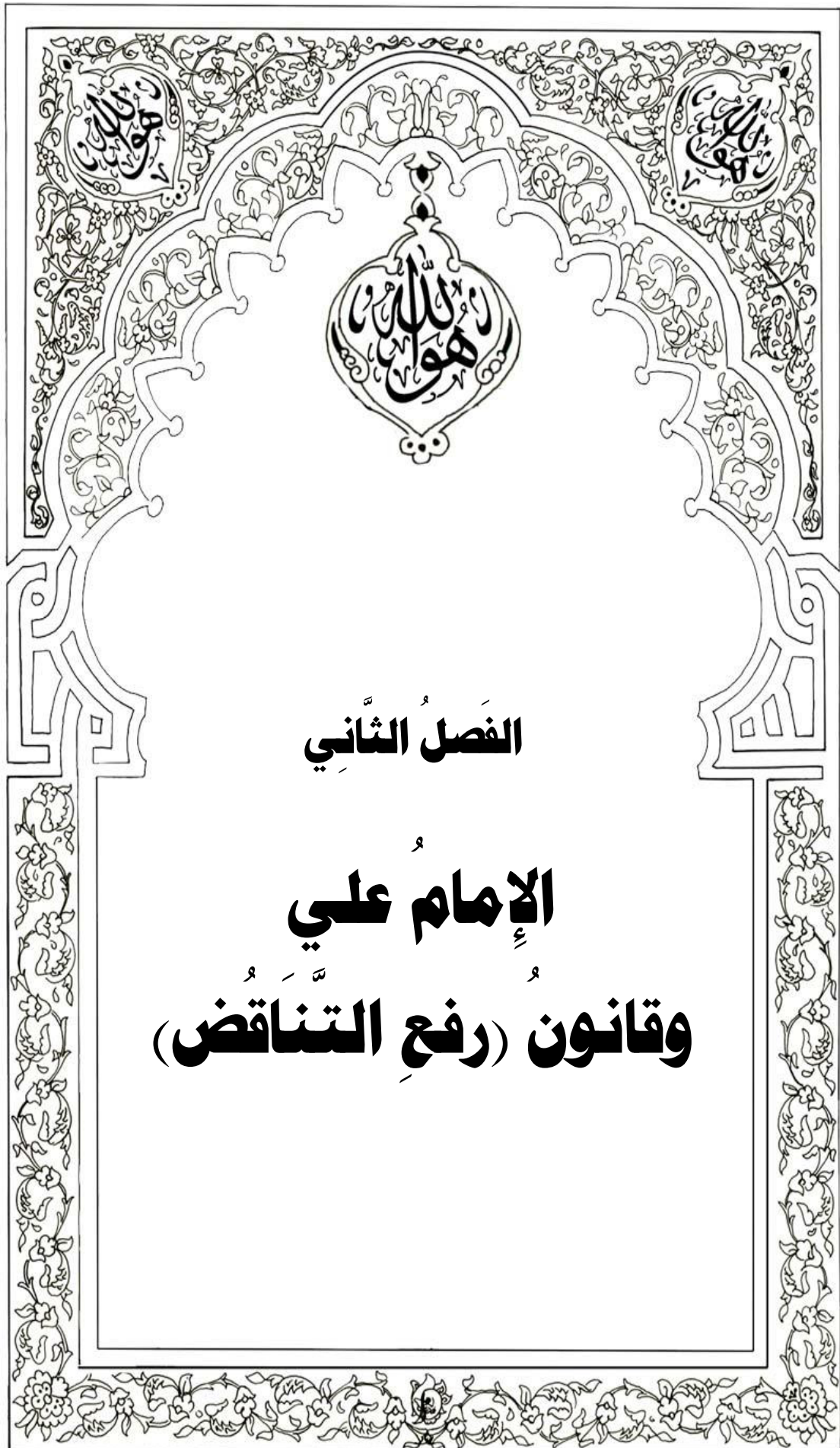
مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

الولاية حاضرة لا غائبة:

الفصل يؤصل لفكرة أن الولاية لم تُختزل في التاريخ، بل هي حضور
فعّال عبر العهد الحي، وكل مريد صادق إنما يسير في طريق بدأ
بالإمام عليٍّ ولم يُغلق بموته.
الباب لا يزال مفتوحاً:

الإيمان بالولاية يقتضي الدخول من بابها في هذا الزمان، كما دخل
منها السابقون، وهذا الباب ما زال يتجلى في من يحمل السرّ، ويمنح
العهد، ويُعيد السالك إلى مدينة العلم المحمدي.





الفصل الثاني

الإمام علي

وقانون (رفع التناقض)

السُّؤَالُ الصَّعْبُ وَالْمُقَدِّمَاتُ الْعَقَلِيَّةُ

من الأسئلة التي تتكرّر على ألسنة البعض بشأن مقام الإمام علي عليه السلام وولايته، هو قولهم:

هل ورد اسمه صراحة في القرآن الكريم؟

هل جاء في التنزيل الحكيم تصريحٌ بأنه باب مدينة العلم؟

إذا لم يذكر، فمن أين جاءت هذه المنزلة التي تجعل منه وارثاً للنور وباباً للحقيقة المحمدية؟ وما حجيتها؟

أقول: السؤال في حد ذاته هو المفتاح الأول لكل كشف أو اكتشاف، فكل سائل هو مكرم ما دام يبتغي الحق أو وجه الحقيقة، لا التصيد أو المماحكة. وهذا السؤال حق مشروع وإجابتنا عنه تتجلى في مقدمتين: المقدمة الأولى:

في البدء، القرآن الكريم كتاب الله لا كتاب في علوم طبيعة. والفرق بينهما ان كتاب العلم الطبيعي مطالب ان يكون مطابق للواقع المحسوس كلمة كلمة، بل حرفاً حرفاً، ذلك ان كتب الطبيعة تصف الواقع المادي كما هو، بلا زيادة أو نقصان. أما القرآن الكريم فكتاب آيات الهيّة ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾⁽¹⁾ والآيات حقيقتها ثنائية، فيها جانبين: مادي وروحي، والمادي ظاهر والروحي باطن، وبالتالي فالنص القرآني فيه دلالة صريحة على الظاهر وفي الوقت نفسه فيه دلالة مضمرة على الباطن، وبالنتيجة: عدم ذكر الأمر صراحة لا يدل على عدم وجوده مضمراً في النص.

استناداً إلى هذه المقدمة العقلية، نهيب بالسائل ان يكون أكثر دقة في طرح سؤاله حين يتعلق الامر بالقرآن الكريم، فهنا عليه ان يأخذ الحقيقة القرآنية المثبوتة بعين الاعتبار ولا يتعامل معه كأى نص بشري احادي.

بمعنى: ان على السائل: ان يصوغ سؤاله بطريقة تتضمن الإشارة إلى هذه الثنائية القرآنية فيقول مثلاً:

هل أظهر القرآن الكريم أو اضمر الدلالة على ذكر الإمام علي عليه السلام وكونه الوارث الروحي للمحمدي، وانه باب مدينة العلم؟
ان أتى السؤال بهذه الصيغة الزوجية، فسيكون معتبراً وقيماً، وسوف يؤول إلى إجابة متكاملة، بخلافه، يقع السائل والمجيب في المغالطة.

المقدمة الثانية:

الأصل ان يوجد نص صريح للدلالة على أمر ما مثل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾⁽¹⁾ فمقطع الآية الكريمة هذا يظهر الدلالة على كون سيدنا محمد صلى الله عليه وآله هو رسول الله.

لكن، إن لم يوجد نص صريح، وحصل تناقض بين النص والواقع، أو اختلاف أو قصور، فالاصل هنا يكون التماس ما يرفع ذلك التناقض أو يزيل ذلك الاختلاف أو يبطل ذلك القصور. ووقتها يكون ذلك المتمم واجباً، لأنه وبحسب القاعدة الأصولية المعتمدة (ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب).

قانون رفع التناقض:

في هذا السياق نذهب إلى التأسيس إلى قانون معرفي نصطلح عليه اسم (قانون رفع التناقض)، يهدف إلى إزالة أو رفع أي تناقض محتمل بين النص والواقع في حال حدوثه، ونصه: (إذا بدا تعارض بين النص الديني وبين الواقع الخارجي، فإن حلّ هذا التعارض لا يكون بردّ أو إبطال أحد الطرفين، بل باستنباط أصل مضمّر في الخطاب القرآني، يدلّ عليه دلالة ضرورية غير مباشرة، ويكتشف عبر مدخلة العقل بوصفه أداة لفهم المقاصد القرآنية). يفترض هذا القانون أن الوحي القرآني يحمل في بنيته أدوات نفي التناقض داخلياً. ويفترض أن التعارض الظاهري إنما ينشأ من قصور الفهم أو غياب التفكيك بين الدلالة الظاهرة والدلالة المضمرة المستترة.

إن الحاصل من هذا التقرير هو التأكيد على أنه لو افترضنا - جدلاً - أن القرآن الكريم لم يُضمّر دلالةً على الإمام عليٍّ عليه السلام وبابائته، فإننا نكون قد فتحنا الباب لاحتمال وقوع التناقض بين كثيرٍ من آيات التنزيل الحكيم وبين الواقع الملموس، وهو أمر غير ممكن عقلاً ولا مقبول إيماناً، لأن كلا الجانبين - النصّ القرآني المنزّل من جهة، والعالم الكوني المشهود من جهة أخرى - يصدران عن مصدرٍ واحد، هو الله تعالى. بل إن الأصل في النظر إلى "آيات الكتاب" و"آيات الكون" أن نعتبرهما وجهين لحقيقة واحدة، أحدهما منطوق الوحي، والآخر منطوق التكوين. ومن ثمّ، فإن وقوع التناقض بينهما يُعدّ محالاً في ضوء التوحيد المعرفي، الذي يربط بين الكلمة الإلهية في التنزيل، والسنن الإلهية في الوجود

قد يستغرب البعض هذا التأكيد من قبلنا، لكن الأدلة القرآنية العديدة التي بين أيدينا كفيّة باثبات ذلك، وفيما يلي عدد منها:

الدليل الأول: الاستغفار الحُضوري

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ
وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾
[النساء: 64]

هي نص قرآني صريح، يُبين أن التوبة الكاملة التي تُثمر القرب من الله تعالى مشروطة بأمرين مجتمعين: أن يأتي الإنسان إلى حضرة النبي ﷺ، وأن يستغفر، فيستغفر له الرسول ﷺ.

في الآية الكريمة وصف لطريق مخصوص للوصول إلى رحمة الله تعالى، يُجمع فيه بين المجيء المكاني (جاءوك)، والمقام النبوي الفاعل (استغفر لهم الرسول).

لكن مع انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، يبرز سؤال عقلائي: كيف تطلب الآية الكريمة أمراً عاماً لم يعد ممكناً من جهة الظاهر لا في زمن الظهور المحمدي ولا في الأزمان اللاحقة إلى يوم القيامة؟
هنا نواجه بتناقض ظاهري:

- من جهة، الله تعالى يضع شرطاً لقبول التوبة الكاملة وهو المجيء إلى النبي واستغفاره
- ومن جهة أخرى، النبي ﷺ قد انتقل مادياً، ولم يعد اللقاء الظاهري ممكناً.

فما السبيل لرفع هذا التناقض؟

هنا يحضر قانون (رفع التناقض) في مسلك أهل الذوق والمعرفة الروحية، ومضمونه: أن ما لا يمكن تحقيقه في الظاهر، لا يلغى من

الحقيقة، بل يمكن تفعيله بطريقة أخرى تُبقي المعنى قائماً وتُحقق المقصود. الحل الوحيد لرفع التناقض بين شرطية الآية واستحالة التطبيق الظاهري هو القول بالوراثة الروحية القائمة على انتقال النور إلى وارث محمدي، يكون هو بابه في العالم المحسوس، فكما لا يُطلب من الناس ما لا يُطاق، فإن الله تعالى لا يجعل قبول التوبة مقروناً بشرط يستحيل تحقيقه إلا إن كان قد أبقى بابه مفتوحاً في صورة أخرى. هذه الصورة هي وجود الوريث المحقق، الباب الذي من أتى إليه بنية خالصة، فكأنما جاء النبي ﷺ، ومن استغفر عنده، استغفر له النور الذي لا ينقطع.

بهذه الكيفية، يمكن القول أن حضور النبي محمد ﷺ بين المؤمنين لا ينقطع من جهة نوره، وإن احتجب الجسم المقدس، وشرط المجيء إليه لا يُلغى، بل يتحقق من خلال الباب الذي تشرب النور المحمدي، وفني فيه، وصار امتداداً حياً له. ولا ينتقل باب الا وقد اختار باباً يقوم مقامه، يحقق شرط الصلة المادية المحدودة في الزمان والمكان الحاملة لشرط الصلة النورانية المتعالية على الزمان والمكان.

بهذا الفهم، لا تتعطل الآية الكريمة، ولا تكون مشروطةً بشرطٍ مستحيلٍ، بل تبقى حيةً عاملةً، بشرط تحقق النور في رجلٍ من أهل الله تعالى، يُقيم مقام ﴿الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾⁽¹⁾ بالفعل، لا بالقول، ويُجسد حضور المدينة في الواقع المحسوس وفي الحال بالنفوس لا في المرويات والنقول والكتب.

فمن أنكر باب الولاية المحمدية العظمى المتمثلة برمزية الباب،

فعليه ان يرفع التناقض، وإلا فيه يقع، ومن أقرّ بحقيقة الباب
وضرورته، وجد السبيل إلى الله تعالى كما أراد سبحانه، وارتفعت عن
قلبه الحُجُب، واتصل بالحقيقة التي لا يغيب عنها الزمان.



الدَّلِيلُ الثَّانِي: الْبَيْعَةُ يَدًا بِيَدٍ

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ... فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ﴾ [المتحنة: 12]

هاتان الآيتان، وإن بدتا مختلفتين من حيث السياق، إلا أنهما تتفقان في تأكيد الحقيقة الكبرى:

أن البيعة النبوية ليست إجراءً اجتماعياً، بل هي فعلٌ عبادي، وميثاقٌ علوي، تتحقق فيه يد الله فوق الأيدي، ويتجلى فيه الغفران مع النية الصادقة.

في الآية الأولى، يُعلن الله أن من يبايع النبي، فإنما يبايع الله، وهي عبارة تقطع كل ريب في شأن مقام النبي ﷺ، وتؤكد أن البيعة ليست "نقل ولاء"، بل "تسليمٌ وجودي" لله عبر بابِ حضوري مصطفى.

وفي الآية الثانية، نرى كيف فُصّلت البيعة من جهة شروطها! ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِينَ...﴾⁽¹⁾ وهو بيان صريح أن البيعة ليست علاقة شعورية فقط، بل تحوّل سلوكي، وانضباط روحي، واستعداد لتحمل العهد أمام الله.

لكننا هنا، نواجه السؤال ذاته:

ماذا بعد انتقال النبي ﷺ؟

هل انقطعت البيعة؟

وهل انتفت اليد التي فوق الأيدي؟

وهل بقيت الشروط دون مقام يقبلها ويزكيها ويستغفر لأهلها؟

الجواب:

البيعة النبوية، بحسب نسق الآيتين، لم تكن قائمة على حضور النبي ﷺ الجسدي فقط، بل على حضوره المقامي.

فهو ﷺ كان الباب بين الخلق والخالق، فمن بايعه، بايع الله تعالى، ومن خضع له في المعروف، دخل في عقد الله تعالى، ومن جاءه تائبًا، استغفر له فاستُجيب له وبناءً على هذا الفهم، فإن انقطاع الجسم لا يعني انقطاع المقام.

فالآية تقول: ﴿فَبَايَعُوهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ﴾ أي أن البيعة الحق لا تكتمل إلا إذا قبلت في حضرةٍ تحقّق فيها النور، واستتبعَت باستغفار حيٍّ، يصدر من لسانٍ موصول بالله، لا من فمٍ يُردّد وحسب.

وفي ظل غياب النبي ﷺ بالجسم، لا بد من بابٍ وارثٍ، يحمل النور، ويُفعل الأثر فكما أن النبي ﷺ بايع النساء وبايع الرجال، لا فقط ليأخذ عهدًا، بل ليظهر القلوب، ويستغفر لمن بايعه، كذلك فإن في كل زمنٍ وليًا، شيخًا، وارثًا، يتحقّق فيه هذا المقام.

في الطريقة الكسنزانية، تُفهم البيعة على أنها ليست تجديدًا للتقليد، بل تفعيل حيٍّ لآية باقية.

الشيخ الحاضر، إن تحقّق بنور الولاية، صار يمدّ اليد لا من ذاته، بل من النور، فيبايعه المريد، وتُرفع عنه حُجُب النفس، ويُستغفر له في حضرةٍ لا تقلّ حضورًا عن بيعة النساء، لأنها بيعة على التزكية،

مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

والصدق، والطهارة، والخضوع في المعروف، وكلها قائمة على نور الباب،
لا على ذكر الشروط وحدها.

الخلاصة:

آية البيعة الأولى بيعة وجودية: ﴿إِنَّمَا يَبَايَعُونَ اللَّهَ﴾.

وآية البيعة الثانية بيعة سلوكية: ﴿فَبَايَعَهُنَّ وَاسْتَغْفَرَ لَهُنَّ﴾.

وفي الجمع بينهما تظهر "الطريقة": يَدُّ تُمَدُّ، وَقَلْبٌ يُطَهَّرُ، وَنُورٌ
يُسْتَنْزَلُ، وَسِرٌّ يُسَلَّمُ.

فمن قال إن البيعة توقفت، كمن قال إن النور انطفأ.

ومن لم يدرك مقام الشيخ الكامل، فقد أنكر يد الله فوق يده، وإن
قرأ الآية صباح مساء.

إن آية البيعة لم تُكتب للتاريخ، بل كُتبت لأجلك، لتدخل بها حضرة
من لا يغيب، عبر باب من لا يدعي.

البيعة بالباب باقية.



الدليل الثالث: المحبة الإلهية

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾

[آل عمران: 31]

تضع هذه الآية ميزاناً وجودياً فاصلاً بين الدعوى والحقيقة، بين الشعور والاتباع، بين من يقول ومن يتحقق. فمحبة الله ليست مقاماً يدّعيه الناس بقلوبهم أو ألسنتهم، بل هي نتيجة لا تتحقق إلا إذا وُجد سببها، والسبب هنا: اتباع النبي محمد ﷺ

لكن هنا يتولد استشكال أساسي: كيف يتحقق هذا الاتباع بعد انتقال النبي ﷺ إلى العالم الآخر؟

هل يكفي الاتباع للمرويات القولية؟

وهل تُجدي محبة عاطفية لا تصحبها صحة فعلية، ولا تزكية مباشرة، ولا تعلق بنور حاضر؟

هل يُمكن لعاشق أن يتبع من لا يراه، ولا يسمعه، ولا يجالسه، ولا يأخذ عنه في مقام السر؟

الأسئلة هذه ترتفع إلى الحضرة الإلهية المقدسة نفسها؟

بالنسبة للسؤال الأخير، فالآية الكريمة أجبت بوضوح، الله تعالى متعالٍ، أي متمنع عن التماس المباشر مع خلقه ظاهراً وباطناً، بدلاً من ذلك يمكن التماس المباشر ظاهراً وباطناً مع الحضرة النبوية المطهرة، فهي صفة نوره الأزكى، والتعلق بعشقها حساً ومعنى أمر ممكن لتمثلها بين البشر ومجانستهم، ومجالستهم، بالتالي فهي واسطة الاتباع الحقّة ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

وأما بالنسبة لبقية الأسئلة، فالتناقض الظاهري بين شرط الآية (اتباع النبي) وواقع الأمة بعد انتقاله لا يُمكن تجاوزه إلا بتفعيل (قانون رفع التناقض). فمن المعلوم أن الله لا يكلف العباد بما لا سبيل لهم إليه، ولا يربط رضاه بفعلٍ يصير مستحيلاً من جهة الظاهر. وهذا يعني أن الاتباع لا يمكن أن يُقصد به حفظ الأحاديث فقط، أو تقليد السلوك الخارجي، بل إن المقصود هو التحقق بنور الحضرة المحمدية المطهرة، والتعلق بمقامه ﷺ الحي، واتباعه عبر من ورثها، وتحقيق بها، وصار واسطةً حيّة لها.

إن اتباع النبي ﷺ، بحسب روح الآية، هو الدخول في نوره، والتلقي من روحه، والتأدب في حضرته، وهذا لا يُمكن إلا إذا كان بين الناس رجلٌ قد فنى في ذلك النور، وصار مرآة صافية للحقيقة المحمدية.

عليه، فإن الوريث الروحي هو شرط بقاء الآية فاعلة في الزمن، لأنه من خلاله يمكن للمريد أن يتبع الرسول اتباعاً حياً، لا شكلياً، فيذوق محبة الله لا كمجرد رجاء، بل كمقام يُبلغ إليه بالفعل.

فالاتباع في حضرة الشيخ الكامل ليس عبودية لشخصه، بل محبة في الله تعالى، ومتابعة في السر، واصطفاف مع المقامات العليّة.

حين يتجرّد المريد من أنانيته، ويقف بين يدي الشيخ الوارث كما كان الصحابة بين يدي النبي ﷺ، يتحقق فيه الوعد القرآني: ﴿يُحِبُّكُمْ اللَّهُ﴾.

المحبة هنا لا تُكتسب بالقراءة، ولا تُنال بالحفظ، بل تُمنح بالاتباع الحي، وكل مريد لهذه الحقيقة يصل إلى ما لا تبلغه يد، ولا يدركه عقل، بل تذوقه الروح في المقامات العلى.

هكذا، الآية دعوة متجددة في كل عصر، من لم يفهمها إلا على ظاهرها الزمني، عَظَّلها، ومن فهم أن النور لا يتوفى بل ينتقل، وأن الورثة ورثة حقيقة لا رواية، أبقاها فاعلة، وسار ببركتها بل طار إلى الله جل وعلا.

الدليل الرابع: الوسيلة الوسيلة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ
وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 35]

تأمر هذه الآية الناس جميعاً أن يبتغوا إلى الله وسيلة. والأمر هنا لا يدل على التنويع أو التخيير، بل على الحث والإلزام، ما يعني أن القرب من الله لا يكون مباشرة بلا وساطة، بل عبر وسيلة معينة، هي واسطة نورانية مشروعة، يقبلها الله تعالى، ويجعلها طريقاً إليه.

الوسيلة المقصودة هنا -كما نفهم- ليست مجرد الأعمال الصالحة أو النيات المجردة، وإنما تشير إلى درجة مخصوصة من القرب، تُستمد من خلال أشخاص أو مقامات يؤذن لهم بذلك.

الحضرة المحمدية المطهرة، وبالضرورة القرآنية والعقلية هي الوسيلة في زمن الظهور المحمدي التاريخي، لكن إذا بعد انتقال النبي محمد ﷺ، تبرز أمام الأمة المعضلة العميقة:

كيف يبتغي الناس إليه الوسيلة وقد احتجب ظاهر النبي ﷺ عن أعينهم؟ وإن كانت محصورة في زمن النبوة فقط، فما معنى أن يبقى الأمر بها قائماً في نص أبدى يتلى إلى يوم القيامة؟

هنا نقف أمام تناقض ظاهري: أمر إلهي دائم بابتغاء وسيلة، في مقابل غياب الوسطة الظاهرة بعد النبي ﷺ.

لرفع هذا التناقض، لا بد من التيقن والتسليم بأن الوسيلة لم تنقطع، بل انتقلت من صورة إلى صورة، من النبوة إلى الولاية، من المصدر إلى الفيض، من الأصل إلى الباب.

الوسيلة لا تعني أقولا منقولة، بل حضور حي، يتجلى في رجل من

مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

أهل الله تعالى، تحقّق بالنور، وفنى في السرّ، حتى صار باباً موصولاً بالمدينة، يصل من صحبه إلى الحقيقة المحمدية.

هذا الرجل ليس نبياً، ولا مدّعياً، بل وارثاً، حياً، فاعلاً، حاضراً، يحمل في حضرته أثر النبوة، ويجري في كلامه نفس المدينة، وتكون صُحبته وسيلةً، وطاعته أدباً، وحضوره مرآةً للقرب الإلهي.

الشيخ الكامل هو الوسيلة، لا لأنه يحلّ محلّ النبي ﷺ، بل لأنه يمثله في التربية والنور.

هو من إن جلس إليه المريد، وجد أثر التزكية، وإن أطاعه صدقاً، وجد سبيل الحكمة، وإن أحبّه لله، وصل إلى محبة الله، تحقيقاً لا تخيلاً. إن القول بانقطاع الوسيلة بعد انتقال النبي ﷺ يؤدي إلى تعطيل الآية نفسها، وهذا لا يليق بكلام الله تعالى.

لذلك فإن الفهم الحق هو أن الوسيلة باقية، لكنها تُدرَك بالعناية، لا بالعين، وتُصادف في الشيخ الحيّ، لا في صفحات الكتب.

الشيخ الحق، هو من يوصلك إلى الله تعالى لا إلى ذاته هو، كيف لا وهو الباب، وما الباب إلا ممر بين الطريق والبيت.

إذن، ابتغاء الوسيلة اليوم، لا يكون إلا من خلال الباب المحمدي المتحقّق بنوره ﷺ، الذي جعله الله تعالى نقطة وصل بين الأرض والسماء، ومرآة يرى فيها السالك ما لا تبلغه عينه، ولا تحتمله وحدته.



الدليل الخامس: الطاعة الرسوليّة

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ [النساء: 80]

هذه الآية ليست مجرد بيان فضل، بل إعلان لحقيقة روحية عميقة: أن طاعة النبي محمد ﷺ ليست طاعةً مستقلة، بل هي عين طاعة الله تعالى. أي أن العلاقة بين العبد وبين النبي ﷺ، إذا كانت على وجهها الصحيح، تكون موصلة إلى الله بلا انقطاع، لأن النبي لا يأمر إلا بما أمر الله، ولا ينهى إلا بما نهى عنه، ولا يدلّ إلا على الطريق الذي يوصل إلى الحق.

لكن بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، يُطرح سؤال ضروري: كيف تتحقق هذه الطاعة اليوم؟

هل تقتصر على الالتزام بالأوامر والنواهي المدونة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يكتفى بطاعة الله فقط والتي تتمثل بالنص القرآني فحسب؟

يعني: لماذا لم يقل مثلاً: من يطع القرآن فقد اطاع الله؟! وذلك أن القرآن الكريم فيه أوامر ونواهي كاملة وتامة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (1)!

من الواضح أن التنزيل الحكيم قد ميّز بين طاعة الله المجردة

وطاعة الرسول باعتبارها مدخلاً مزدوجاً لطاعة الله؟ بمعنى أن الطاعة الظاهرة لشخص الرسول ﷺ الظاهر في زمنه كانت ضرورة، كضرورة الطاعة لله تعالى المتمثلة في آياته.

ولكن، من المعلوم بالضرورة، ان الآيات النصية تبقى خالدة، تتناقل بالألسن والقراطيس، في حين ان الدورة الزمنية لعمر الرسول محمد ﷺ محدودة، فكيف يطاع الله تعالى ان لم يكن الرسول ظاهراً؟ أصلاً كيف يطاع الرسول نفسه ان لم يكن حاضراً؟

هذا التناقض الظاهري بين دوام الأمر الإلهي بطاعة الرسول ﷺ، واستحالة الطاعة الحيّة بعد غيابه، لا يمكن رفعه إلا بإدراك أن الطاعة النبوية مستمرة بوجود باب لمدينة العلم المحمدي، أي بوجود من يقوم في مقام التوجيه والتزكية والتربية، لا مقام التشريع.

الوارث الروحي، إذا تحقّق بسرّ المدينة، وفنى في المحبة، صار وجهاً من وجوه الطاعة النبوية، لا لأنه مُشرّع، بل لأنه مُربٍّ، مذكّر، ناطق بالحال، يتكلّم بكلمات قديمة بروح جديدة، ويعيد للنص حياة كانت ستنطفئ لولا حضوره الحيّ.

طاعة الشيخ الكامل في هذه الحالة، ليست طاعة لشخصه، بل لما تحقّق فيه من سرّ النبوة. فإذا أطاعه المريد بنية الاتباع النبوي، فقد أطاع الله تعالى، لأن الطاعة هنا تتجاوز الجسم إلى الروح، وتتجاوز التوجيه الظاهري إلى الهداية النورانية.

لو لم يكن في الأمة ورثة من هذا النوع، لتوقفت فاعلية هذه الآية، ولما بقي معنى لقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ بعد زمان النبوة.

أما أن نُبقي على النص حيّاً، ونقول: إن في كل زمان من يقوم بوظيفة الطاعة النبوية بالتحقّق لا بالدّعاء، أو نكون قد عطّلنا الآية دون

أن نشعر، ونزعم أننا نطيع من لا يمكننا الاقتراب منه أصلاً
الطاعة، إذًا، ليست تكراراً، بل دخولاً في النور. والنور المحمدي إذا
اقيم في رجل، صار باباً، وطاعته سُلماً، وتوجيهه حياةً.
من هنا يفهم أن الوارث الروحي الكامل هو موضع الطاعة بعد
النبي ﷺ، لا لأن مقامه يساوي مقام النبوة، بل لأن نوره قائم بنوره،
وسيره متصل بسيره، وحاله شاهد على ما احتجب من الحال.



الدَّلِيلُ السَّادِسُ: الرَّأْفَةُ وَالرَّحْمَةُ النَّبَوِيَّةُ

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ
حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]

تُقَدِّمُ هذه الآية وصفًا حيًّا لحال النبي ﷺ في علاقته بأمته، فهو ليس مجرد مُبلغ أو معلم، بل حضورٌ مليء بالرحمة والرأفة والحرص على المؤمنين.

هذه الصفات ليست صفات خُلُقِيَّة فقط، بل صفات وجودية مؤثرة، تلامس الناس في واقعهم، وتُغيِّرهم بحضوره

لكن مع انتقال النبي ﷺ، يُطرح سؤال جاد: هل انتهى هذا الحضور الرؤوف الرحيم؟ وإن كان حيًّا في معناه، فأين يتجلى أثره؟ وهل يمكن للمؤمنين أن يشعروا بذات الرأفة، وذلك الحرص، دون حضورٍ حيٍّ يحمل هذا النور ويُجسِّده؟

هنا يبرز التناقض الظاهري بين وعد الآية واستمراريتها، وبين احتجاب الجسم النبوي. فكيف تبقى الرأفة فعالة حسيًّا، والنبي ﷺ غائب؟

(قانون رفع التناقض) يفرض أن الرأفة النبوية لا تُجسَّد في الكتب وحدها، بل لا بد لها من استمرار عمليٍّ، من خلال رجال تحقَّقوا بها، فصاروا امتدادًا لها. وهنا نفهم لماذا كان الإمام عليٌّ عليه السلام هو أول من حمل هذا السر، لأنه أول من فنى في النبي ﷺ، وصار أقرب الناس إلى قلبه وسره.

الإمام عليٌّ عليه السلام لم يكن فقط وارث علم أو فضل، بل وارث رحمة، وحرص، ومقام، ومنه ابتدأت سلسلة الورثة الذين تفيض الرأفة من أرواحهم على من حولهم.

من عليّ إلى الحسين والحسن البصري، ثم إلى الشيخ عبد القادر
الجيلاني، وصولاً إلى مشايخ الطريقة الكسنزانية (صلوات الله تعالى
عليهم أجمعين)، تتجلى هذه الرحمة بصورة متجددة.

الشيخ الحاضر ليس إلا وجهٌ حيٍّ من تلك الرحمة، مُظهرٌ لها في
الزمان، من جلس إليه شعر بالرافة، لا من جهة الشخصية، بل من
جهة النور الساري فيه. فهو يحمل ذلك الحرص، يرقّ على المريدين،
ويهديهم، ويعلمهم، لا من عنده، بل بما أفيض عليه من نور الباب.

وهكذا تُرفع استحالة الآية، ويُزال التناقض، ويُفهم أن بقاء الرافّة
مرهونٌ ببقاء الورثة، وبأن يكون في كل عصر بابٌ مفتوح، من دخل منه
وجد النور، ومن تبعه ذاق الرحمة التي وعد الله بها عباده، وبقيت
جاريةً من محمد إلى من سار في نوره بصدق.



الدَّلِيلُ السَّابِعُ: الصَّوْتُ الْقَائِمُ فِي الْوَارِثِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ
وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ
أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: 2]

هذه الآية الشريفة جاءت في سياق تربية الصحابة على الأدب مع
حضرة النبي محمد ﷺ، لكنها لم تُقدِّم بوصفها أدباً فقط، بل بوصفها
شرطاً لحفظ الأعمال من الحبوط. فالذين يرفعون أصواتهم فوق
صوت النبي ﷺ، والذين يفتقرون إلى التمييز في الخطاب معه، يُعرِّضون
حسناتهم للبطلان، ليس لأنهم خالفوا قاعدة سلوكية، بل لأنهم أخلوا
بأدب المقام.

الصوت هنا ليس مجرد تردد موجي مادي، بل دلالة على المرتبة،
ومن تجاوز المرتبة، وتقدَّم بظاهر نفسه على نور النبوة، فقد اختل
ميزانه أمام الحق سبحانه.

لكن مع انتقال النبي ﷺ، يُطرح السؤال: أين صوت النبي ﷺ اليوم؟

هل المقصود بالصوت هو صوته الحسي فقط؟

وإذا غاب صوته، هل سقط التكليف بالأدب معه؟

وهل يُفهم من ذلك أن التحذير من رفع الصوت انتهى باحتجاب
الجسم الشريف أم أن في الأمر سرّاً أعمق، يحتاج إلى من يبينه في
سياق الحضور النوراني؟

هنا نلجأ إلى قانون رفع التناقض. فإذا بقيت الآية تُتلى، وكان في طيها
شرطُ بصون الأدب مع صوت النبي ﷺ، لثلا تحبط الأعمال، فلا بد من

جهة يُطلّ منها صوت النبي ﷺ على العالم، وجهة يكون فيها صوته قائماً، في الأذن، وفي القلب، في الموجات، وفي السرّ.

هذه الجهة لا تكون إلا عبر الوارث الروحي المحقّق بالنور المحمدي، فهو الذي يُذكّر بالله، ويُتّبّه إلى المقام، ويُجسّد أدب النبوة في حضوره. فالذي يرفع صوته فوق صوت الشيخ الكامل، المتحقّق بسر النبي ﷺ، فقد رفع صوته فوق المقام، وأساء الأدب مع من هو حامل للسرّ، فيخسر عمله دون أن يشعر.

الإمام علي عليه السلام كان أول من تشرّب هذا المقام، وكان كلامه امتداداً لصوت النبي ﷺ، فإذا تحدّث، أنصت من في قلبه إيمان، وإذا وعظ، سكن المكان، لأنه ما كان ينطق إلا من معدن النور. ومن بعده، الورثة، كلّ بقدر تحقّقه، إذا حضروا، وجب الصمت، وإذا نطقوا، وجب الإنصات، وإذا جُهل حقّهم، حُبط العمل، لأنّ تجاوز المقامات، خرّق في نظام الأدب الإلهي.

وهكذا، فالآية حية، حاكمة. والنبي ﷺ وان غاب بالجسم، إلا أن صوته لا يزال يُسمع في من فني فيه، ومن فنى فيه، وجب الأدب معه كاملاً تاماً.

بالنتيجة: حضور الباب ضرورة لخلود الآية الكريمة، وكل ضروري حق.



الدَّليْلُ الثَّامِنُ: التَّزْكِيَّةُ تَرْبِيَّةٌ رُوحِيَّةٌ

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته
ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [الجمعة: 2]

لا تشير هذه الآية إلى مهمة خطابية، بل إلى وظيفة وجودية كاملة.
فبعثة النبي ﷺ لم تكن مجرد إعلان لشريعة، بل كانت تربية حيّة،
تشتمل على ثلاثة محاور: التلاوة، والتزكية، والتعليم.

ترتيب هذه الأركان ليس عبثاً، بل فيه دلالة على أن التزكية تحتل
مقاماً وسطاً بين التلقي والفهم، فهي القلب النابض الذي يربط بين
الوحي والمعرفة.

التزكية هنا لا تعني الوعظ أو التذكير، بل تطهيراً فعلياً للنفوس،
وتغييراً حياً في باطن الإنسان، لا يتم بالكلام بل بالحال، ولا يحصل
بالقراءة بل بالصحة، ولا يتحقق إلا في حضرة من يحمل النور ويُجريه.
لكن بعد انتقال النبي ﷺ، توقّف حضوره البدني، وبقي النص قائماً.
والسؤال الذي يفرض نفسه: كيف تتحقق التزكية اليوم؟ هل تبقى
الامة بلا هذا المقام؟ وإذا كانت التزكية شرطاً لإصلاح النفس، وتطهير
القلب، وإعداد العبد للدخول في حضرة الحكمة، فهل يُعقل أن تُلغى
بمجرد احتجاب الجسم النبوي؟

هنا نعود إلى قانون رفع التناقض. فلا يمكن أن يأمر الله بالتزكية،
ويجعلها من خصائص بعثة نبيه ﷺ، ثم يرفعها عن الناس بعد انتقاله.
بل إن ما كان يُؤدّيه النبي ﷺ حالاً، لا بد أن يُؤدّيه بعده من تحقّق بنوره،
وفني في سره، وصار مرآة له. وهذا هو الوريث الكامل، الذي يقوم مقام
التزكية بالفعل، لا بالقول، ويظهر القلوب بالمجالسة، لا بالمحاضرة

الإمام علي عليه السلام كان أول من ورث هذا المقام. لم يكن محدثاً ولا فقيهاً فقط، بل كان مريباً يزكي من حوله بنظره وصمته، كما كان النبي صلى الله عليه وآله يفعل. ومنه ابتدأت سلسلة الورثة الذين تحملوا هذا السر العظيم، وعبرهم استمر فعل التزكية حياً.

لأجل هذا، كانت التكية في طريق القوم ليست موضع اجتماع، بل ساحة للتزكية العملية. يدخلها المريد لا ليُخبر، بل ليُطهر، لا ليقرأ، بل ليُصَفَّى، لا ليُقال له، بل ليزوق بنفسه ما تعنيه الآية: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

فإذا جلس المريد في حضرة شيخ كامل، أدرك أن المقام ما زال حياً، وأن الآية لا تزال فاعلة، وأن التربية لم تغب، بل انتقلت من جسم النبوة إلى جسم الولاية، ومن صوت الوحي إلى صوت الحال.

وهكذا، تظل هذه الآية شاهدة على أن النور لا ينقطع، وأن الطريق لا يُسلك بلا مربٍّ، وأن من طلب الوصول بلا تزكية إنما ابتغى هيكلاً بلا روح.

التزكية إذن: مقام رُوحِي لا يزال فعّالاً في من ورث، وتحقق، وأذن له، وحُمِّل في قلبه سرّ المدينة، لا يزال فعّالاً بسبب حضور الباب.



الدَّلِيلُ التَّاسِعُ: لَابَدٌّ مِنْ شَاهِدٍ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

[الأحزاب: 45]

هذه الآية الكريمة تُلَخِّصُ المهام العالمية للنبي محمد ﷺ، فهي تُحدِّد له ثلاث وظائف جامعة: الشهادة، والبشارة، والإنذار. وهنا سنتحدث عن مهمة مقام "الشاهدية" الذي ظلَّ يُقرأ غالباً بقراءة لغوية أو جزئية، من غير التفات كافٍ إلى دلالة الروحية وامتداداتها العابرة للزمن.

إن الشهادة هنا ليست بمعنى مجرد الاطلاع أو الحضور، بل تعني: الحضور الواعي في كل زمان، والمعرفة النورانية بأحوال الأمة، والقيام بوظيفة بيان الحق وكشف الباطن، فهي حالة من السريان الروحي الذي لا يتوقف بانتقال الروح، لأن النور لا يُطفأ، والحق لا يُعدم.

فإذا أرسل النبي ﷺ شاهداً في قوم، فمعنى ذلك أن مقام الشهادة لا بد أن يبقى حاضراً في الأمة، ليس في زمن الظهور فحسب، في جميع أزمانها المتوالية إلى يوم الدين. ذلك أن هذا الحضور من شروط الهداية، ومن لوازم قيام الحجة، بل من أركان استمرارية البلاغ.

لكن، انتقال النبي ﷺ إلى العالم الآخر، يُحيلنا إلى سؤال الكتاب: كيف تبقى هذه الشهادة حيّة بعده؟

إن الجواب عن هذا لا يكتمل إلا ببيان ضرورة وجود "الباب"، الذي يمثّل استمرارية الاتصال بالحقبة المحمدية، ويجعل مقام الشهادة فاعلاً ومؤثراً في الواقع، عبر وارث نوراني يتحقق بهذا المقام، ويُبقي المعنى القرآني متصلاً بالحياة والناس.

بكلمات أخرى: يتضح أن مقام الشاهدية لا يُمكن أن يستمر إلا بوجود ممثل نوريّ متصل بالحقيقة المحمدية، أي بالباب الذي يفتح المدينة، ويصل النور إلى من حوله.

من هذا المنطلق، فإن انتقال النبي ﷺ إلى عالم الغيب، لا يوقف مقام الشهادة، بل يقتضي امتداده في الزمان عبر من تحققوا بنوره.

إن كل وارث روعي يتصل بالحقيقة المحمدية بشكل استمراريًّا حيًّا لهذا المقام، يقوم بوظيفة الشاهد على الناس، مثلما قام بها الإمام عليّ عليه السلام بعد النبي ﷺ، وكما يقوم بها الشيخ الحاضر في وقته والذي تحققت فيه معالم الوراثة، فصار مرآة للشهادة المحمدية في عصره.

فكما أن نور النبي ﷺ متصل بالله، كذلك نور الإمام عليّ عليه السلام متصل به ﷺ، ومن بعده ورثته الروحيون، الذين يتحققون بفنائهم في النور المحمدي، ليصيروا مرآة لهذا الشهود المستمر.

فإذا تدبّرنا أحوال الأولياء الكبار، نجد أنهم لا يتحدثون عن الغيب بالتخمين، بل بالذوق والمشاهدة، ويُخبرون عن المريد، ويقرؤون بباطنه، ويُرشّدونه بحكمة تشهد لما في قلبه، وهذا ليس من قبيل الإدّعاء، بل من مقام الشهادة.

الشهادة إذن، باقية في الأمة، لكنها لا تكون لأيّ أحد، بل لمن تحقّق بحال الباب ووراثته.

إن دوام النور المحمدي مرهون بحضور هؤلاء الشاهدين، وهم في كل عصر برهانٌ على أن النور لا ينطفئ، وأن الحقيقة لا تنقطع، وأن الشهادة باقية ما بقيت الحياة.

الدَّلِيلُ الْعَاشِرُ: أَخْذُ الصَّدَقَاتِ

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
[التوبة: 103]

هذه الآية تُعلن عن وظيفة مزدوجة للنبي محمد ﷺ، ليس فقط في أخذ المال، بل في كونه واسطة روحية تُنقل عبره آثار التزكية والتطهير والسكينة. فسيدنا النبي ﷺ لا يقوم بجمع الأموال فحسب، بل هو يأخذها نيابة عن الله تعالى، ويتصرف فيها بما يُطهر المتصدق، لا فقط بما يعين الفقير.

لذا، فإن الصدقة هنا ليست إجراءً مالياً، بل عبوراً نفسياً وروحياً عبر قناة نورانية يمثلها النبي، فتنتقل بها آثار البركة، ويتحقق بها الطهر الداخلي.

ومن هذا المعنى يتضح أن النبي ﷺ، في مقامه، ليس وسيطاً إدارياً، بل مظهرٌ حيٌّ لاسم الله التَّوَاب والمُطَهِّر، ومن خلال أخذه الصدقة وصلاته على المتصدق، يتحقق وعد الله بالتزكية. لذا قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ﴾، فالصلاة النبوية ليست مجرد دعاء، بل حال، وامتداد نور، وطمأنينة تنزل على قلب من يتلقى منه هذا المقام. فلو كانت الزكاة تؤدي أثرها تلقائياً، لما أمر الله النبي ﷺ أن يأخذها، ويصلي على أصحابها، ويجعل من صلاته سكناً لهم. فالفعل هنا مشروط بالحضور النبوي، وبللمسة النور، لا بمجرد أداء المناسك.

لكن بعد انتقال النبي ﷺ، تظهر الحاجة إلى طرح سؤال أساسي: كيف تتحقق هذه التزكية اليوم؟

ومن يأخذ الصدقة لا باليد فقط، بل بالحال؟
ومن يملك أن يصلي على المتصدقين صلاةً تكون لهم سكناً وطمأنينة؟
هل يكفي أن يُعطى المال لوكيل الدولة؟
وهل تُجزئ الزكاة في معناها القرآني بمجرد الإخراج المالي، دون أن تُفعل فيها الروح التي كانت قائمة في حضرة النبي ﷺ؟
وإذا لم تبق هذه الوظيفة النورانية، فهل تتوقف الآية من التطبيق، وتبقى للذكر فقط؟

ماذا بشأن العدالة، اذ تميز الصحب الكرام بذلك النصيب من التزكية، فماذا بشأن المؤمنين في كل زمان؟
هنا يتدخل قانون رفع التناقض، ليبين أن ما كان فعالاً في زمن النبي ﷺ لا يمكن أن يتوقف، لأن الحاجات الروحية لم تتوقف، ولأن الله لا يشرع أمراً متعلقاً بطهارة القلب، ثم يرفعه دون بديل. فكما كانت الزكاة في زمن النبي ﷺ طريقاً للتطهير عبر وساطته النورانية، كذلك لا بد من وجود وارث يحمل النور، ويجري عبره مقام التزكية والسكينة، ولو لم يكن نبياً.

الورث الروحي، هو من إن أخذ الصدقة، أخذها بحاله لا بيده، وإن صلى على المتصدق، أنزل عليه سكينه بنوره، لأنه لا يصلي من نفسه، بل من اتصال.

الإمام علي عليه السلام كان أول من قام بهذا المقام بعد النبي ﷺ، فكان إذا أعطاه الناس زكاتهم، طابت نفوسهم، لأنهم لم يقدموها لرجل، بل للوارث عن المدينة. ومنه سارت السلسلة، فكل شيخ كامل يزكي المرید، ليس بفرض زكاة المال فقط، بل بإشارته، وبنظره، وبأخذه عن الله، وردّه إلى الله تعالى.

التكية في هذا السياق، ليست مكان جمع صدقات، بل موضع تحقق هذا المقام الروحي من التزكية، حيث يتم الوصل بين المتصدق والسماء، عبر النية، والطريق، والحال، والشيخ الحاضر. وهكذا، لا تبقى آية ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ﴾ آية من التاريخ، بل تصبح عقداً حياً بين السماء والأرض، يُفَعَّل حين يقوم في الأرض من يتحقق بهذا المقام.

إن من لم يَر في الشيخ الكامل مظهراً لهذا الوصل، فقد حصر الزكاة في حدود المعاملة، وضَيّع جوهرها. أما من قدّم ماله عند باب النور، فقد تطهر به، وتزكى، ونال سكينة لا تأتي من رقم، بل من مقام. فالصلاة النبوية اليوم، هي دعاء الشيخ المتحقّق، لا بصفته، بل بما يحمل من أثر، ومن دخل تكية صادقة، فقد دخل في مقام هذه الآية، ومن بايع على الإخلاص، وتطهّر بصدق، فقد نال منها نصيباً كما نال من قبل من جاؤوا للنبي ﷺ، وسمعوا: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾.



الدِّلِيلُ الحَادِي عَشَرَ: الهَادِي إِلَى الصِّرَاطِ

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52]

في هذه الآية الجليلة بيانٌ واضحٌ أن النبي محمدًا ﷺ لم يكن فقط متَّبِعًا للصراط المستقيم، بل هاديًا إليه. والاختلاف بين من يسير على الطريق، ومن يهدي إليه، أن الهداية تقتضي مقاماً فوق مقام السالكين، لأن الهادي لا يدل فقط، بل يعرّف الطريق بباطنه، ويكشف تفاصيله، ويأخذ بيد التائه ليوصله إلى موضع الأمان.

هذا النوع من الهداية ليس تعليمًا عامًا، ولا دعوةً خطابية، بل ممارسة فعلية لهداية النفوس عبر المعاشية والتأثير النوراني المباشر. لكن بعد انتقال النبي ﷺ، يبرز التحدي الكبير: من الذي يهدي بعده إلى الصراط المستقيم؟

وإذا كانت الهداية المقصودة في الآية ليست مجرد بيان الشريعة، بل دلالة فعلية تخرج الإنسان من التيه إلى النور، فهل يمكن لعالم، أو كتاب، أو موعظة أن تقوم مقام هذه الوظيفة؟ أم أن الهداية المشار إليها تتطلب حضوراً نورانياً، يتحقق فيه أثر النبوة، فيكون من يقوم بها ليس مشرّعاً، بل وارثاً، يُجري الله الهداية على يديه كما أجراها على يد النبي ﷺ؟

هنا يتدخل (قانون رفع التناقض).

فلو قيل: إن النبي ﷺ هو وحده من يهدي، وانتهى الأمر بانتقاله، فإن

مُحَمَّدٌ نُورُ بَابِهِ عَلَيَّ

الهداية الموصوفة في القرآن تكون محصورة في زمن معين، مما يتعارض مع امتداد الخطاب القرآني لكل الأزمنة، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾⁽¹⁾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾⁽²⁾.

فمع حاجة الناس المستمرة للهداية النورانية التي لا تُتال من الكتب وحدها، وإذا ثبت أن الهداية باقية. فلا بد وبالضرورة من استمرارية وجود حامل لها، متحقق بها، موصول بسرّها، بحيث إن الجلوس معه هداية، واتباعه سيرٌ على الصراط، وصحبته سَكينة تُفتح بها أبواب الطمأنينة وتُدرَك بها المقامات.

هنا تظهر ضرورة رمزية وجود الباب.. بدون وجود الباب يتعطل كل ما تقدم.

الإمام علي عليه السلام كان أول من تحقّق بهذا الوصف بعد النبي ﷺ، لا لأنه من أهل الفضل فقط، بل لأنه فنى في النور المحمدي حتى صار يُشار إليه في عصره: من اتبع علياً، فقد اتبع محمّداً، ومن أحبّه، فقد سرى في قلبه أثر النبوة.

ومن بعده، لم يكن الباب ليغلق وإلا لم يكن ليفتح أصلاً من بعده، انتقلت مهمة الهداية عبر سلسلة من الرجال الذين توارثوا النور بالحال، فكان كل واحد منهم في زمانه باباً. صار دالاً على الصراط، لأن الطريق يُنشأ من جديد، بل لأن النور واحد، والهداية واحدة، والسر لا يتغير وإن تبدّلت الوجوه.

1 - [الأنبياء: 107]

2 - [سبأ: 28]

التكية أو (بيت الذكر) في هذا السياق، ليست موضع شعائر أو طقوس، بل موقع الهداية الفعلية، حيث يُجلس المريد أمام الشيخ لا لينصت فقط، بل ليتشرب الطريق، ويتذوق الصراط، ويخرج من الحيرة بالنور لا بالمعلومة.

من دخل التكية بتية السير، ووجد من يأخذ بيده، فقد دخل في معنى الآية: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾⁽¹⁾، لأن الهداية لا تزال فاعلة، والفاعل هو الوارث، والحامل هو الشيخ الكامل.

هكذا تبقى الآية جارية، ما دام في الأمة من يقوم بها صدقاً، وما دام في الطرق من حفظوا العهد، ومن ساروا من المدينة إلى الحاضر بحبل من النور لا ينقطع.

الهداية اذن ليست من الواعظ، بل من الواصل.

ليست من حافظ النص، بل من حامل السرّ.



الدَّيْلُ الثَّانِي عَشَرَ: أَيْمَةُ الْهُدَى

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24]

في هذه الآية بيان لحقيقة روحانية عميقة، تتعلّق بمقام الإمامة لا بوصفها سلطة على الأجسام بل نوراً يهدي إلى الله تعالى، لا برأي الإمام، بل بأمر من الله تعالى نفسه.

الهداية هنا ليست دعوة، ولا بيان شريعة، بل فعل إلهي يجري على لسان رجل اصطفاه الله تعالى، بعد أن تحقق بالصبر واليقين، وهما مفتاحا الدخول إلى مرتبة الاصطفاء الروحي الحقيقي. هذه الهداية التي تكون بأمر الله، هي عين ما يعبر عنه التصوف بمقام الشيخ الكامل أو الوارث المحمدي.

لا يملك مقامه من ادّعاء، ولا ينهض به من درّسه، بل من فنى في نور النبوة، وثبت على الطريق، وتحقّق من الله بيقين لا يخالطه هوى. فمثل هذا الرجل يُجري الله تعالى على يديه الهداية، لأنه لم يعد ينطق من ذاته، بل صار لساناً للسرّ، ووجهاً للولاية. لكن هذا المقام، كما بيّنته الآية الكريمة، لا ينهض وفقاً لما يريده العبد، بل لما يأذن به الله تعالى. وهنا تتضح الصلة العميقة مع الرواية المباركة: ﴿أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا﴾⁽¹⁾، فالنبي محمد ﷺ هو أصل العلم الإلهي، ومركز النور،

1 - الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1، 1990م، رقم الحديث [4637]، ج 3 ص 137.

والمرجع الأول للهداية. ولكن كما لا يُدْخَل إلى المدينة إلا من الباب، كذلك لا يُؤْخَذ عن النبي إلا بوساطة من أذن له أن يكون باباً له. فالإمام علي عليه السلام، لم يكن باباً لأنه الأقرب نسباً، بل لأنه الأسبق يقيناً، والأشدّ صبراً، والأكمل فناءً، حتى صار تجلياً للهداية الإلهية، يأخذ عن المدينة، ويعطي للأمة.

بذلك، يكون الرواية المباركة شاهداً نبوياً على ما تقرره هذه الآية الكريمة، من أن الإمامة لا تُدْرَك بالطلب، بل تُعْطى بأمر، وأن من أُعْطِيها، صار هادياً بالفعل لا بالكلام، بالحال لا بالقول.

من الإمام علي عليه السلام، سار هذا المقام في ورثة النور، الذين تحقّقوا بالصبر واليقين، وجعلهم الله أئمةً يهدون بأمره في كل زمان. ومن بعد الإمام علي عليه السلام، لم يُغْلَق الباب، بل بقي مفتوحاً، يجري فيه النور لمن حمل الأمانة، فتراهم في كل زمان، يدلّون لا يدّعون، يُطمئنّون لا يُخوفون، من عرفهم من سرّهم لا من ظاهرهم، دخل إلى المدينة.

التكية في هذا السياق، ليست ملتقى مُحْبِّين، بل موضع تجلٍّ للإمامة النورانية، التي تفتح الطريق، وتدلّ العارف، وترسخ الأقدام.

هكذا، تبقى آية الإمامة بأمر الله تعالى، دليلاً قرآنيّاً حيّاً على أن الهداية ليست منقطعة، وأن حديث المدينة والباب ليس مجازاً، بل إعلان نبوي عن ترتيب إلهي في وراثة النور، وأن السالك إلى الله لا بد له من باب، وأن هذا الباب الأول هو مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ثمّ من تلاه من أولياء الله الكاملين، الذين حملوا الأمر، بعد أن صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون.

الخاتمة: النُّور لا يَنْقَطِعُ، والبَابُ لا يُغْلَقُ

لم تكن هذه الأدلة القرآنية التي استعرضناها من باب التفسير التقليدي، ولا من سبيل التحليل المجرد، بل كانت محاولة صادقة لإظهار أن النور المحمدي الذي بُعث به النبي محمد ﷺ، لم يكن محصوراً في حقبة تاريخية ولا محدوداً بجسم فانٍ، بل هو نور ممتد بأمر الله، جارٍ في الأرض عبر ورثةٍ أذن لهم، وتحققوا بالصبر واليقين، وحُمل إليهم السرّ كما يُسلّم النور من قلب إلى قلب، ومن حال إلى حال.

لقد دلّت هذه الآيات على أن الوظائف الروحية الكبرى التي نُسبت للنبي - كالاستغفار، والهداية، والتزكية، والبيعة، والدعاء، والتطهير، والتعليم، وتفعيل السكينة - لم تكن ممارسات رمزية، بل وقائع فعلية في النفوس، وأنها لا تزال ماضية في الزمان، لا بغياب النبي ﷺ، بل بحضور مَنْ ورث نوره، وفني في محبته، وسار على صراطه حتى صار له باباً في عصره.

لذلك، لم نكتب هذه الأدلة لإثبات فضل الإمام علي عليه السلام فحسب، بل لنبيّن أن رواية ﴿أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا﴾⁽¹⁾ ليس تعبيراً عن مكانة، بل إشارة إلى ترتيب إلهي لا تزال آثاره حاضرة. وأن علياً عليه السلام ليس باباً مغلقاً على ماضٍ عظيم، بل مفتاحاً لنور دائم، من دخله دخل إلى سرّ المدينة، ومن أعرض عنه بقي في ظاهر القول، وإن حفظ النصوص.

1 - الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1، 1990م، رقم الحديث [4637]، ج 3 ص 137.

نكتب هنا لنبين ان الإمام علي عليه السلام كان الوصل المتصل بالأصل، ثم تتابع الورثة، رجال صدقوا، ما غيّرُوا، ولا ادّعوا، لكن الله فتح بهم للخلق أبواب رحمته، فجعل التكية مقاماً للتزكية، والبيعة وسيلة للوصل، والسكينة أثراً لحضورهم، والهداية جارية على أيديهم، والصلاة في وجوههم أماناً، والاستغفار معهم مَدْخَلاً للتوبة، والموعظة من أفواههم نوراً.

هكذا، تكون هذه الشواهد لا دعوة لطائفة، ولا دفاعاً عن مذهب، بل بياناً لخطّ النور الذي سار عبر الأنبياء، ثم اصطفى له خلفاء، فكان الإمام علي عليه السلام أولهم، ومن تلاه من السلسلة المباركة امتدادٌ له، حتى الشيخ الحاضر، الذي إن عرفتَ مقامه، رأيت في نوره أثر المدينة، وإن بايعته صدقاً، فتحت فيك آياتٌ كانت ساكنة، وإن دخلت حضرته، ذكرك بالله تعالى، من غير أن ينطق، لأنه بقية شجرة النور فيه، وفي صمته ظلّ السر والحضور، وفي وجهه تجلّى معنى قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾⁽¹⁾.



خُلَاصَةُ الْفَصْلِ الثَّانِي

إشكال سؤال الاسم:

يتكرر سؤال: لماذا لم يُذكر اسم الإمام عليّ عليه السلام صراحةً في القرآن؟
جواب: الإمام عليه السلام ليس في حاجة للدفاع التاريخي، بل لفهم قرآني أعمق، قائم على قراءة المثنوية القرآنية: ظاهر وباطن، (آية: مادية روحية).

المقدمة الأولى – القرآن كتاب آيات لا وقائع:

القرآن ليس كتاب فيزياء أو تاريخ حرفي، بل كتاب دلائل إلهية؛ فيه إشارات ظاهرة، ودلالات مضمرة لا تُدرَك إلا بالبصيرة، وهذا يغيّر صيغة السؤال.

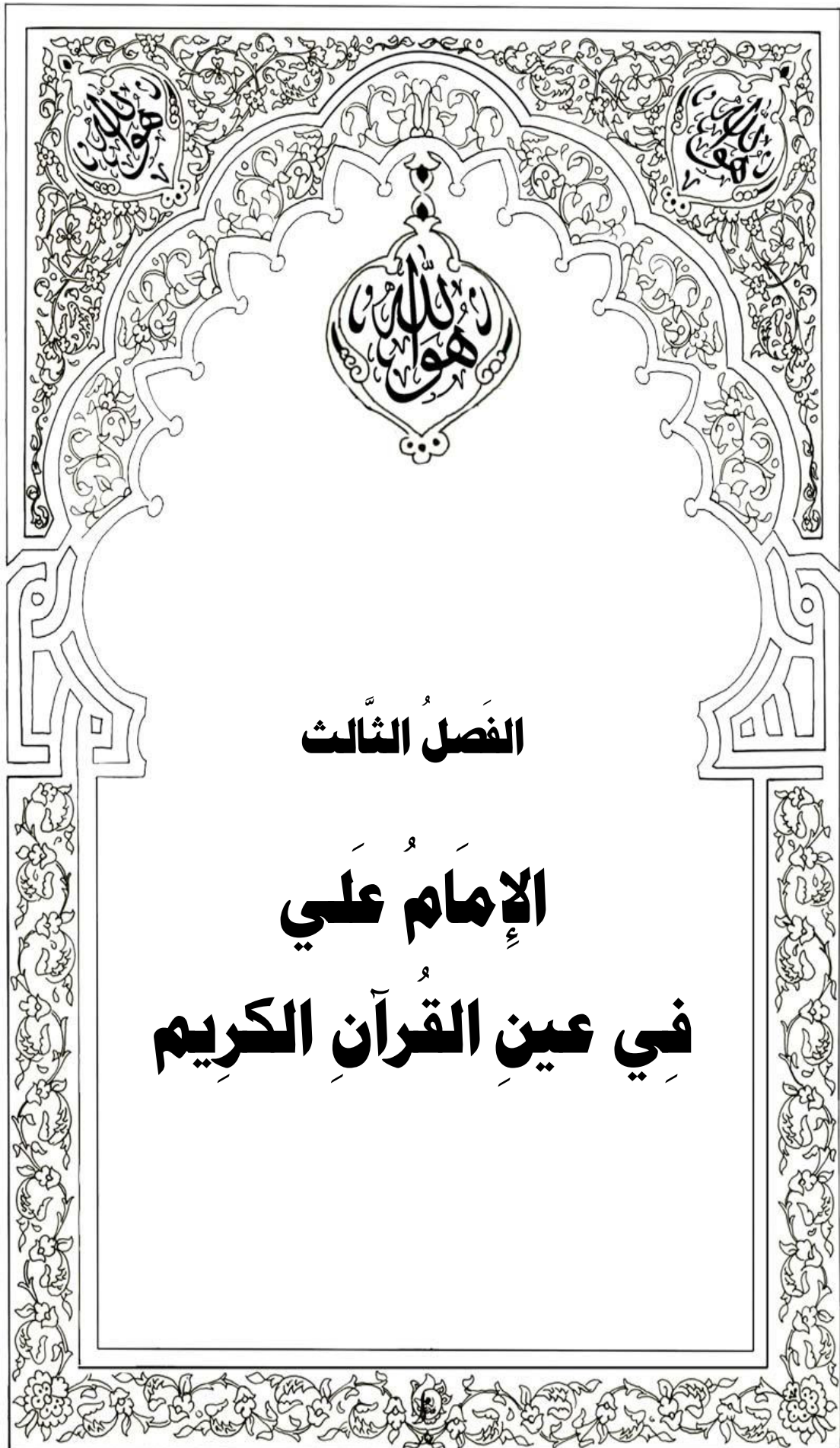
المقدمة الثانية – قانون رفع التناقض:

إذا بدا تناقض بين ظاهر النص والواقع، فالقرآن يُضمّر الحل في طيّاته. الحل ليس بإلغاء النص أو الواقع، بل باكتشاف أصل مشترك مُضمّر، والعقل هو أداة الكشف.

القاعدة الأصولية:

"ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب".

إذا كان وجود الإمام عليّ عليه السلام لازماً لرفع التناقض بين النبوة والوراثة، فالقرآن يضمّر دلالة على ذلك بالضرورة.



الفصل الثالث

الإمام علي

في عين القرآن الكريم

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَالتَّجْدِيدُ فِي الْفَهْمِ

ليس من شأن القرآن أن يُحَبَسَ في تأويلٍ واحد، أو يُخْتَزَلَ في فهمٍ جامد، بل هو كتاب حيّ، يتكلم في كل زمان بلسان أهله، ويهدي كل جيل بما يناسب حاجته واستعداد قلبه.

لقد جُعِلَت آياته محكمة في مبناها، مفتوحة في معناها، قابلة للتجلي بحسب صفاء المتلقي، وصدق المشتاق.

وإننا حين نعيد قراءة بعض آياته في هذا الكتاب، فإننا لا نزعم تجديدًا بمعزل عن الأصول، ولا قراءة مقطوعة عمّا سبق، بل نقصد إحياء البُعد الحي في النص، والبحث عن المقاصد التي تتكشف حين يُقرأ القرآن من موضع الاتصال بالحقيقة المحمدية، ومن مقام الباب الذي به يُفتح الفهم وتُستنطق الآيات من جديد.

التجديد الذي ننشده هو وفاء للنبع الأول، لا خروجاً عنه، واتصالٌ بالنور الممتد، لا تفلتاً من جذوره.

وهذا التجديد ليس ادعاءً عقلانياً مجرداً، ولا تأويلاً لغوياً مبتسراً، بل هو شهود ينبثق من مقام حيّ، قائم بين الناس، يتحقق فيه الفهم من الداخل، ويُستنطق فيه القرآن من حيث هو كتاب هداية حيّ، لا وثيقة من الماضي.

من هنا، فإن كل قراءة تعيد وصل الآية بسياقها النوري، وتربط ظاهرها بباطنها، هي قراءة أقرب إلى مقصود التنزيل، وأوفى لعهد، وأقدر على تجلية أسرار الكتاب في زماننا.

القرآن الكريم لا يشيخ، لكنه قد يُقرأ بعين شاخت، وقد يُستخرج منه اليوم ما لم يكن يُفهم بالأمس، لا لأن المعنى غاب، بل لأن القلب الذي يتلقاه لم يكن قد تهيأ بعد، أو لأن الباب الذي يفتحه لم يكن

حاضراً في الزمان. وحين يكون الباب حاضراً، فإن المدينة تُفتح، والآيات تتكلم، ويعود الكتاب من جديد رسولاً هادياً، لا مجرد نصٍّ محفوظٍ. لذلك، فإننا في هذا الفصل، لا نأتي بجديد خارج القرآن الكريم، بل نفتح بأذن النور باباً لفهمٍ قديمٍ جديد، حيث تلتقي الدلالة الحاضرة بالسند الروحي المتصل، وحيث يصير القرآن الكريم حياً كما كان، يهدي النور بنور، لا بالقول فقط، بل بالحال والوصال.



التَّجْدِيدُ فِي فَهْمِ آيَةِ (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: 55]

انطلاقاً مما تبين في الفصل السابق من أن وجود باب متصل بمدينة العلم المحمدي ليس خياراً رمزياً بل ضرورة قرآنية وروحانية، وأن غياب هذا الباب يؤدي إلى اختلال في انسجام الخطاب الإلهي مع الواقع الإنساني، فإن هذا الفصل يهدف إلى إعادة قراءة بعض الآيات الكريمة في ضوء هذا الفهم، وتجديد بيانها بما يكشف عن امتداد النور المحمدي عبر الورثة، ويعيد وصل المعنى القرآني بسياقه الحي في الواقع الملموس.

في هذا السياق سنحاول ان نجيب عن تساؤل آخر على قدر كبير من الأهمية يتعلق بولاية جدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يتعلق أساساً بالآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾⁽¹⁾، حيث ذهب عدد كبير من أعلام المفسرين والمؤرخين من مختلف المذاهب الإسلامية إلى أن هذه الآية الكريمة نزلت في الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام تحديداً، ومن أبرزهم؛ الطبري في «جامع البيان»⁽²⁾، وابن كثير في

1 - [المائدة: 55]

2 - الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - القاهرة، 2001م، ج8 ص530.

«تفسير القرآن العظيم»⁽¹⁾، والزمخشري في «الكشاف»⁽²⁾، والواحي في «أسباب النزول»⁽³⁾، والفخر الرازي في «مفاتيح الغيب»⁽⁴⁾، والسيوطي في «الدر المنثور»⁽⁵⁾، وابن حجر الهيتمي في «الصواعق المحرقة»⁽⁶⁾، وغيرهم. الأمر الذي يعكس توافقاً ملحوظاً بين العلماء، رغم تباينهم في تأويل الآية ودلالاتها.

السؤال الذي نود تسليط الضوء عليه هو: إذا كان الذي آتى الزكاة أثناء الركوع هو الإمام علي عليه السلام وهو مفرد، فلماذا استخدمت الآية الكريمة صيغة الجمع فقالت: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ ولم تستخدم صيغة المفرد فتقول مثلاً: يؤتي الزكاة وهو راكع؟

آراء المفسرين والعلماء في هذا معلومة ولسنا في صدد عرضها ومناقشتها فليس هذا غرضنا هنا، غير أننا نخرج على واحدة منها على سبيل المثال وهو ما ذهب إليه الزمخشري في الكشاف: «جاء به على لفظ الجمع وإن كان السبب فيه رجلاً واحداً، ليرغب الناس في مثل فعله فينالوا مثل ثوابه»⁽⁷⁾. وهو فهم لا يستقيم مع الواقع لأنه

-
- 1 - المحقق: حكمت بن بشير، دار ابن الجوزي - السعودية، ط1، 1431 هـ، ج3 ص423.
 - 2 - ضبطه وصححه ورّبه: مصطفى حسين أحمد، دار الريان للتراث بالقاهرة - دار الكتاب العربي ببيروت، الطبعة: الثالثة 1407 هـ - 1987 م، ج1 ص649.
 - 3 - المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، الناشر: دار الإصلاح - الدمام، الطبعة: الثانية، 1412 هـ - 1992 م، ص199.
 - 4 - الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ، ج12 ص378.
 - 5 - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر - بيروت، ج3 ص101.
 - 6 - الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، المحقق: عبد الرحمن بن عبد الله التركي - كامل محمد الخراط، مؤسسة الرسالة - لبنان، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1997 م، ج1 ص104.
 - 7 - تفسير الكشاف، مصدر سابق، ج1 ص649.

(لو كان لبان)، بمعنى: لو ان كان المقصود بالآية سن سنة حسنة للناس، فلماذا لم ينتشر أو على الأقل يعرف هذا الأمر عند المؤمنين فيؤتون الزكاة وهم راکعون لهذا السبب أو ذاك؟!

في فهمنا: لو أن الآية الكريمة قالت: (إنما وليكم الله ورسوله والذي آمن الذي يقيم الصلاة ويؤت الزكاة وهو راکع) لحصل اشكال كبير ولوقعنا في تناقض جلل، وذلك ان الولاية ستقتصر هنا على ثلاثة فقط لا رابع لهم: الله تعالى ورسوله ﷺ والإمام العلي عليه السلام. وهذا يعني اقتصار باب الولاية على الامام علي فحسب، أي يغلق به، وظاهر آيات القرآن الكريم التي بينها في الفصل السابق فضلا عن آيات كثيرة سواها، تقطع بأن الولاية مستمرة بعد عهد النبوة، غير مقتصرة على شخص الامام فقط. لذا فإن صيغة الجمع هي الوحيدة التي يمكن ان تجد لها مصداق في الواقع الملوس.

ولكن، إن كانت صيغة الجمع تتناسب مع الواقع الملوس في الولاية، فكيف تفسر بشأن إتيان الزكاة، فالواقع الملموس يقطع بأنه لم يفعل أحد من الأولياء مثل ما فعل الإمام اثناء تلك الواقعة؟

هذا تساؤل وجيه، والاجابة عنه جد واضحة بالنسبة لنا، فنحن لم نزل نقول: ان القرآن الكريم يصدق على الظاهر والباطن، وليس على الظاهر فقط. فإن كانت إتيان الزكاة في الصلاة حالة مفردة بدلالة الظاهر، فلا بد ان نفهم أن تعميمها قائم حقاً في المستوى الباطن.. كيف؟

الآية الكريمة تُضمّر الدلالة على الحقيقة المُحمّدية الباطنة، وهذه الحقيقة تعني: ان النور واحد في حقيقته متعدد في مظاهر صورته، فحين يُختار فرد أو يصطفى أو يعين ليكون باباً لهذه الحقيقة، فإن جانية الروحي يفنى في النور الواحد ويتماهى معه، وفي هذه الحالة، فلا

فرق بين الوحدة والكثرة، أو الافراد والتعدد، بل يصدق على الأمر كلا الشأنيين في الوقت نفسه.

حين أتى الامام علي عليه السلام الزكاة أثناء الركوع، فإن هذا الفعل من الناحية الظاهرية تعلق بهذا المظهر، ولكن من الناحية الباطنية، فإن هذا الفعل صار لجميع المعنيين في مقام الباب إلى يوم القيامة.

بعبارة أخرى: ورثة مقام باب مدينة العلم، جميعهم أولياء لجميع المؤمنين في جميع الأزمنة بدء من عهد النبي محمد ﷺ إلى يوم القيامة.

بهذا الفهم، الآية تخاطب المؤمنين في كل زمان قائلة لهم: إن وليكم له صورة حق ظاهرة زمانية مكانية محددة بينكم، وله في الوقت نفسه صور حقيقة متعالية على الزمان والمكان، السابق واللاحق.

بهذا، باب كل زمان ليس مضطراً ليؤت الزكاة وهو راع، فقد فعلتها حقيقته الباطنة بالفعل، مثلما يمكن القول: لو ان حامل أمانة الباب في عصرنا هذا أتى الزكاة وهو في حلقة الذكر، فإن ذلك يعني ان حقيقة الامام علي عليه السلام قد آتاه بالفعل، وإن لم تأت بها في الظاهر.

يمكن تلخيص ما تقدم في النقاط الآتية:

الوراثة الروحية تقوم على وحدة النور المحمدي رغم تعدد مظاهره عبر الزمان .

الإمام علي عليه السلام هو أول من تجلّت فيه هذه الولاية، ثم امتدّ في الورثة من بعده .

الآية ﴿ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ جاءت بصيغة الجمع رغم أن الفعل وقع من فرد، للدلالة على أن المقام يتجاوز حدود الحدث الظاهري إلى الباطن .

الفعل الذي يتحقق به أحد المعنيين في مقام الباب (ظاهريًا أو

مُحَمَّد نور بابه عَلِيّ

باطنيًا) هو بالفعل قد تحقق لجميع أولياء السر النوراني.
الصيغة القرآنية تدل على أن الباب في كل زمان واحد من حيث
النور، متعدد من حيث الظهور.
هذا الفهم يرفع التناقض بين النص القرآني والواقع، ويثبت
استمرارية الولاية النورانية عبر العصور.
في هذا السياق، نجد أنَّ الرواية المنسوبة إلى الإمام جعفر الصادق
عليه السلام: «أولنا محمد، وأوسطنا محمد، وآخرنا محمد، وكلنا محمد»⁽¹⁾،
هي تعبيرٌ بالغ الدقة عن هذه الحقيقة، وأنها تجسّد وحدة المنهج
والنور في سيرتهم الممتدة عبر الزمن.



1 - المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، ط 2، 1403هـ، ج 26 ص 16.

التَّجْدِيدُ فِي فَهْمِ آيَةِ: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ
رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ
وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ--﴾
[الفتح: 29]

هذه الآية الكريمة آية محورية في تصوير التكوين الروحي المتكامل الذي يجمع بين الجلال والجمال، بين الصلابة الإيمانية والرحمة الداخلية.

فُهمت هذه الآية على مدار التاريخ أنها نزلت في الصحابة عموماً، وهي بالفعل تظهر الدلالة على ذلك، لكن حضرة السيد الشيخ محمد المحمد الكسنزان (قدست أسرارهِ المباركة) قدّم فهماً إشارياً عميقاً يفتح أفقاً آخر للقراءة، حيث رأى أن الآية الكريمة في جوهرها تضمّر الدلالة أو تشير إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

السبب الأساس في هذا الفهم، هو غياب حرف الواو بين قوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ وقوله: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، مما يدل على أن الشدة والرحمة ليستا صفتين منفصلتين زمنياً أو سلوكاً، بل حالتين متلازمتين في الشخص نفسه، وفي اللحظة نفسها، وفي المقام الروحي ذاته.

هذا البناء القويم لا ينطبق إلا على من بلغ مقام التوازن الكامل، وليس إلا الإمام علي عليه السلام، الذي جمع في ذاته بين البطش في الحق، واللين في الحق، دون أن يطغى أحدهما على الآخر.

لو كانت الآية تقصد جماعة متفرقة في شخصياتها ومقاماتها الإيمانية – كما هو حال الصحابة على تفاوتهم في الفهم والقرب

والصفاء - لكان للعبارة أن تأتي بصيغة: "أشداء على الكفار ورحماء بينهم"، ليفصل بين الصفتين. أما أن تُنزع الواو، فمعناه أن المتحدث عنه واحد في الحقيقة، وإن بدا جمعاً في العبارة، وأن هذا الواحد قد جمع في لحظته الكاملة بين النقيضين تكاملاً لا تناقض فيه.

إننا حين نتأمل في سيرة الإمام علي عليه السلام، نجد أن الشدة كانت فيه خلقاً إلهياً لا غضباً نفسانياً، وأن الرحمة كانت فيه ذوباناً في الحق لا ضعفاً في العاطفة. هو الذي لم يسكت عن مُنكر، ولم يقهر ضعيفاً، وهو الذي قاتل في المعارك، وبكى في محرابه، وربّى بجوارحه وأحواله، فكان مقام الباب الأول الذي يُدخل منه إلى مدينة العلم.

لهذا، فإننا لا نقرأ الآية بصيغة جمع عدد، بل بصيغة جمع مقام. أي أن من وُصفوا بهذه الآية هم أهل مقام الباب، ابتداءً من الإمام علي عليه السلام، وامتداداً في الورثة الروحيين الذين تحققوا بهذا المقام في كل عصر. كلُّ منهم يكون شديداً على نمط الكفر في زمنه، لا لأنه يغضب، بل لأنه نور الحق؛ رحيماً بالمؤمنين، لا لأنه يلين، بل لأنه حامل سرّ التربية. فكل شيخ كامل متحقق بمقام الباب، تظهر فيه هذه الآية من جديد، بصيغة لا تتكرر في ظاهرها، لكنها حاضرة في باطنها.

استناداً إلى حقيقة "كلنا محمد"، والتي يُراد بها التحقق بالباطني بالحقيقة الجامعة لا التماهي الجسدي. فإن كل وارث روحي لا يكون وارثاً بحق إلا إذا تحقق فيه مقام هذه الآية: أي أن يكون وتراً في النور، شفعاً في السلوك، محمدياً في الجمع، علوياً في التجلي.

بهذا، فإن الآية الكريمة في ظاهرها تبدو عامة، وهي بالفعل تظهر الدلالة على المجموع الاعتباري لا الافرادي لعموم من كان مع النبي محمد ﷺ، أي في محل جمع إيمانهم وشدتهم ككل. لكنها في دلالتها الباطنية الدقيقة، تشير إلى واحد فقط من بينهم جمع في ذاته ما تفرق

على مجموعهم، وهو الإمام علي عليه السلام .

لقد ظهر أولاً، ثم تكرر حضوره في كل من تحقق به بعده. ومن هنا، يكون الإمام علي عليه السلام هو باب التحقق المفرد بهذه الآية الكريمة، ومن بعده يُقرأ الجمع النوراني الذين يظهرون بوجوه مختلفة في أزمنة متعددة، لكنهم جميعاً لسان واحد لحقيقة واحدة.

وبالمثل، فإن أصحاب او مريدي أي باب في أزمانهم، هم في محصلة مجموعهم يكتسبون هذه الحالة المتراكبة أو الثنائية من الشدة والرحمة المتتامة، أما حين تنظر إلى أي فرد منهم على حده، فتجده إما ميلاً إلى الشدة على الرحمة أو العكس بنسب متفاوتة، وكل منهم لا يستطيع ان يكون شديداً رحيماً في الوقت نفسه، بل من الممكن القيام بذلك على التتابع.

إن هذا الفهم هو من أسرار حرف (الواو) سواء أظهر ام احتجب، حيث تكون له آثار آياتية مزدوجة بين الظاهر والباطن، وفي هذا قول عزيز ليس هذا مقام البوح به.

الذي يمكن قوله هنا، أن القرآن الكريم حين لم يذكر (الواو) في هذه الآية الكريمة، فإنه لم يدعه لغوياً، بل كشف به سرّاً وهو: أن الذي يُظهر الجلال والجمال معاً، هو واحدٌ في مقامه، وإن تجلّى في جمعٍ من الورثة على مرّ العصور.

هذه هي حقيقة (جمع المقام) الروحي في الطريقة:

كلنا واحد، وكلنا محمد ﷺ، وكلنا بابٌ للحقيقة العلية.

التَّجْدِيدُ فِي فَهْمِ آيَةِ: (بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ
فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67]

هذه الآية العظيمة وردت في سياق ما وقع في غدير خم⁽¹⁾، وهي الواقعة التي أعلن فيها النبي ﷺ الولاية العظمى للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. ذكر السيوطي في الدر المنثور: «عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ على رسول الله ﷺ يوم غدير خم في علي بن أبي طالب.

وعن ابن مسعود قال: كُنَّا نَقْرَأُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أَنْ عَلِيًّا مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ»⁽²⁾.

فخر الدين الرازي في (التفسير الكبير): «نزلت الآية في فضل علي بن أبي طالب عليه السلام، ولما نزلت هذه الآية أخذ ﷺ بيده وقال: ﴿من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه﴾ فلقبه عمر رضي الله عنه فقال:

1 - غَدِيرُ خُمٍّ هو موضعٌ بين مكة والمدينة، بالقرب من الجحفة، وقد ارتبط اسمه بحدثٍ مفصليٍّ في التاريخ الإسلامي، يُعرف باسم بيعة الغدير. وقعت هذه البيعة في الثامن عشر من شهر ذي الحجة، في السنة العاشرة للهجرة، بعد عودة سيدنا النبي محمد ﷺ من حجة الوداع.

2 - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، مصدر سابق، ج3 ص117. الواحدي، أسباب نزول القرآن، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح - الدمام، الطبعة: الثانية، 1412 هـ - 1992 م، ص202.

هنيئاً لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة»⁽¹⁾.
الآية تكشف بوضوح أن أمراً عظيماً كان على وشك أن يُبلّغ، وأن تبليغه يمثل حداً فاصلاً في تمام الرسالة. يفهم ذلك من الشرط الصارم الذي وضعه تعالى وهو: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، أي أن الرسالة كلّها ستكون ناقصة بل وكأنها لم تكن أصلاً، إن لم يُبلّغ هذا الأمر. وهذا يعني أن ما يُراد تبليغه ليس حكماً فرعياً ولا مسألة تشريعية، بل مقام روعي يُحدّد شكل استمرارية الدين بعد انتقال الرسول الأعظم ﷺ

إنّ بعضاً من العلماء فسّروا الآية على أنها نزلت لتأمين الرسول ﷺ من المخاوف المرتبطة بتعيين الإمام علي عليه السلام، فقالوا: إن النبي ﷺ كان يخشى أن يُتهم بالمحاباة أو أن يرفض الناس هذا البلاغ، فأنزل الله عليه: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فزال عنه الحرج، وأعلن الأمر.

وبهذا، تكون الآية قد نزلت في حق الإمام علي عليه السلام، بوصفه المرتضى من الله تعالى ورسوله ﷺ لمقام رفع المحبة، مقام رفع الراية، مقام باب مدينة العلم المحمدي. وأن التبليغ بهذا لم يكن أمراً ثانوياً، بل كان الشرط الخاتم لديمومة الرسالة.

لكن التوقف عند واقعة الغدير وحدها يضيّق أفق الفهم؛ إذ أن الآية في نسقها الكلي تُشير إلى قانون دائم في الدين: أن الرسالة لا تُبلّغ تامّة إلا إذا عُيّن للناس من يحملها بعد الرسول ﷺ، ليستمر التواصل مع الناس بالحال والنور والتزكية. فالنبي ﷺ بلّغ الرسالة كاملة حين عُيّن

1 - وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي . الإمام فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ، ج12 ص401.

مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

عليّاً عليه السلام باباً لمدينته، ففتح بهذا الباب طريق الوراثة النورانية، فجعل لمن يليه امتداداً لا يتوقف برجال مهمتهم القيام بوظيفة التبليغ: تعليم الكتاب والحكمة، وتزكية الناس، وتذكيرهم، وإرشادهم.

عليه، فإن الآية تضمّر الدلالة على ضرورة تعيين الباب في كل زمان، لأن استمرار البلاغ مشروط بوجود من يقوم به فعلاً لا وصفاً. فإن انقطع الباب، انقطع البلاغ، وإذا استمر، بقي نور الرسالة سارياً.

إذن، الشيخ الكامل في كل عصر، ليس مجرد مرشد ديني، بل هو حامل سر البلاغ، ووريث المقام الذي ابتدأ بالإمام علي عليه السلام. وهو بذلك باب حي للمدينة، وصوت آخر للنبي صلى الله عليه وآله، وإن اختلف الزمان.

بهذا الفهم، تكون آية البلاغ إعلاناً عن مبدأ تأسيسي: أن ميزان الرسالة لا يستقيم بثقل الكتاب وحده، بل لا بد من ثقل ثاني معه يعادله، وهو ثقل العترة المطهرة.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم ثقلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»⁽¹⁾.

أول العترة، رمز لباب له أول وليس له آخر إلى يوم الوقت المعلوم، باب يُفتح للمدينة، فيدخل الناس فيها من خلاله

1 - رواه الإمام أحمد في مسنده، ج3 ص14. ورواه الدارمي في سننه، ج2 ص431. ورواه الطبراني في المعجم الكبير. وصحّحه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم 1761. وذكره ابن حجر في الصواعق المحرقة، وعدّه من الأحاديث المتواترة في فضل أهل البيت.

وحداناً وزرافات⁽¹⁾، وهذا الباب لا ينقطع، بل يُورَث، ويظل قائماً ما دام في الأرض من يبلغ بالنور.

أن البلاغ الحق للرسالة المحمدية، لا يتم بل لا يقوم إلا إذا عُيِّن بابٌ لتلك الرسالة في كل حين، وهذا ما كان، وهذا ما هو كائن بالفعل إلى يومنا هذا، ولا ريب أن هذا ما سيكون حتى يوم الدين.



قد يستشكل البعض قائلًا: إذا كانت آية البلاغ قد نزلت في شأن الإمام علي عليه السلام كما تؤكد عشرات الروايات من الفريقين، فلماذا لم يُذكر اسمه صريحًا في الآية الكريمة؟

لماذا أبقى القرآن الأمر بصيغة عامة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾؟

يبدو هذا الاستشكال منطقيًا من الناحية الظاهرية، لكن في واقع الحال، هذا الاستشكال قائم على فرضية ابتدائية باطله أصلًا، خلاصتها: أن وظيفة القرآن الكريم هي الإخبار الحرفي عن الوقائع التاريخية، بينما الحقيقة أن القرآن الكريم ليس كتابًا للتوثيق التاريخي، بل كتاب هداية متجاوز للزمن، يتكلم بلغة المقامات والصفات والنماذج، لا بلغة الأسماء والتقييدات.

ففي المستوى النصي، يُلاحظ أن القرآن الكريم قلَّمَا يذكر الأسماء إلا في مواضع خاصة، حتى أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو صاحب الرسالة المعظم، لم يُذكر اسمه الشريف إلا في أربع مرات، بينما استُعيض عنه بألقاب وصفات تفيد الوظيفة والرسالة مثل: (النبي، الرسول،

المزمل، المدثر، الشاهد، المبشر...). فما بالك بغيره؟

أما في المستوى الروحي، فإن ذكر الاسم يقصر (المقام العام) على شخص بعينه، ويجعل الدلالة محصورة في لحظة تاريخية واحدة، بينما بلاغ الولاية (الباب) -وفق المنطق القرآني- ليس فعلاً مؤقتاً، بل نظاماً روحياً مستداماً.

الإمام علي في غدير خم ليس مقصوداً لشخصه فحسب بل هو المبتدأ الأول لنمط الباب الذي أريد له ان يفتح به عهد الولاية الروحية بعد ختم النبوة

البلاغ الحقيقي الذي يُكْمَل الرسالة لا يكون بتسمية شخص، بل بإقامة مقام، مقام الباب المتصل بالحقيقة المحمدية، وكل من تحقق بهذا المقام بعد الإمام علي عليه السلام هو استمرار لذلك البلاغ، وشاهد حي على امتداده.

يعني: لو ذكر الاسم بالتحديد، لتحول البلاغ إلى حكاية تاريخية، ولانغلق النص على الماضي.

من جهة أخرى: فإن القول بضرورة التصريح باسم الإمام علي عليه السلام في القرآن يفضي إلى التزام منطقي بإدراج أسماء جميع من يأتون بعده في سلسلة الوراثة الروحية حتى قيام الساعة، وهو ما يستحيل تحقيقه من جهة العقل، ويتعذر ضبطه من جهة الواقع، فضلاً عن أنه يتنافى مع سنن التنزيل الحكيم، الذي جاء بصيغة آيات منفتحة تخاطب الإنسان بشأن الدارين، لا بصيغة تقريرية تختزل الخطاب في وقائع الدنيا وأشخاصها المعينين.

أما إبقاء الأمر بصيغة عامة، فهو ما يفتح للنص أبواب الحضور في كل زمن.

إن هذه الحكمة من عدم ذكر الاسم تتناغم مع قانون الباب

المستمر، وهو أن النور المحمدي لا يغيب من الأرض، بل يتجلى في كل زمان بوارث ناطق، يحمل سره ويظهره.

إن آية البلاغ، بهذا الفهم، ليست تخصيصاً للإمام علي فحسب، بل تأسيساً للمقام، واطلاقاً لنظام الوراثة النورانية الذي يُبقي الحقيقة حية عبر الأزمنة.

من هنا نفهم أن الإمام علياً لم يُذكر لأنه ليس مقصوداً لذاته، بل لأنه بداية لسلسلة نورانية، يُستأنف بها البلاغ ويتجدد بها العهد، وصولاً إلى الشيخ الحاضر الذي يحمل النور اليوم.



التَّجْدِيدُ فِي فَهْمِ آيَةِ: (وَأَنْفُسَنَا)

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ
تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا
وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ تَبَتُّهُمْ فَفَجَعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [آل
عمران: 61]

هذه الآية الكريمة وردت في سياقٍ ظاهره التحدي العقائدي، وباطنه إعلان رمزي عن المقامات الروحية التي تشكّل الامتداد الداخلي للنبوة. فقد نزلت الآية عقب مجادلة وفد نجران مع النبي ﷺ بشأن النبي عيسى عليه السلام، فأنزل الله تعالى هذا الأمر بالمباهلة⁽¹⁾، والتي كان يمكن أن تكون حدثاً اعتيادياً يمرّ ضمن تاريخ الجدالات الدينية، لولا أن النبي ﷺ لم يأت بعموم المؤمنين، بل خرج بخمسة فقط: فاطمة، والحسن، والحسين، وعلي (صلوات الله تعالى وسلامه عليهم اجمعين)⁽²⁾. وفي هذا التحديد الضيق تكمن إشراقة التأويل: إذ يفهم أن هؤلاء الخمسة هم صفوة الحقيقة المحمدية، وخلاصتها النورانية، وحجّتها الباطنة في وجه الملل الأخرى. فهم ليسوا فقط ممثلين لأهل بيت النبوة، بل حوامل للسّر، ومصاديق لـ"أنفسنا" التي تشير إليها الآية.

1 - المباهلة: أصلها من الابتهاال وهو التضرع في الدعاء، وترجع إلى أنّ المتباهلين يدعوا كل واحد منهما على صاحبه. انظر: ابن ، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد اليلام محمد هارون، دار الفكر، 1979، ج1 ص311.

2 - السيوطي، لدر المنثور في التفسير بالمأثور، مصدر سابق، ج2 ص232.

والسؤال هنا: من المقصود بـ (أنفسنا)؟

جمهور المفسرين من الفريقين يرون أن المقصود بـ "أنفسنا" في الآية هو الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام⁽¹⁾. وهذا، بحدّ ذاته، يكشف أن القرآن لم ينظر إلى الإمام عليّ عليه السلام باعتباره تابعاً، بل شريكاً روحياً في المقام، وإن لم يكن شريكاً في النبوة. فهو "نفس" النبي صلى الله عليه وآله من حيث المقام، لا من حيث الاصطفاء التشريعي. ولذلك لم يقل: (أولياؤنا) أو (إخواننا)، بل (أنفسنا)، في إشارة رمزية فائقة، يتضح منها أن علياً ليس مجرد قريب، بل هو امتداد للذات النورانية للنبي صلى الله عليه وآله، ومראה لسرّه

من جهة ثانية؛ لو نظرنا إلى آية المباهلة بمنظارٍ شبيه بآية البلاغ [المائدة: 67]، لوجدنا أنها تقوم بوظيفة تبليغ غير صريح، لكنها عميقة التأثير. فبينما آية البلاغ أعلنت أن الرسالة لا تكتمل إلا بتبليغ أمر ولاية الإمام عليّ عليه السلام، جاءت آية المباهلة لتجسّد هذا البلاغ على نحو رمزي حيّ، من خلال اختيار الإمام عليّ عليه السلام ليكون "نفس" النبي صلى الله عليه وآله، أي باب سرّه، وأحد أركان البلاغ الروحي المتجدد

هنا نلاحظ شيئاً بالغ الأهمية: أن القرآن، ببلاغته المتعالية، لا يكتفي بأن "يُخبر"، بل "يُشير"، ولا يقتصر على "الإعلام"، بل يتجه إلى "الإلهام". فالمباهلة كانت مناسبة لوضع "ميزان الأنفس"، حيث لا يُقبل في المباهلة إلا من بلغ مقام الصفاء الكامل، ولا يُستدعى فيها إلا من كان وجهاً للحقيقة.

إن الفهم التقليدي لآية المباهلة يتوقف عند بيان فضل أصحاب

1 - أنظر: جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، دار الحديث - القاهرة، ط 1، ص 75. الامام الرازي، التفسير الكبير، مصدر سابق، ج 8 ص 248. الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، مصدر سابق، ج 2 ص 453.

الكساء عليهم السلام، وهذا حق لا مرية فيه، ولكن الفهم التجديدي يفتح الآية على نسقٍ أوسع: فكما أن النبي ﷺ دعا علياً بوصفه "نفسه"، فإن ذلك يفتح باب الوراثة الباطنة، حيث يتجدد "النفس النوراني" للنبي في كل زمان، بوليٍّ صادق، حامل للسِر، وارث للرحمة. بكلمات أوضح: آية المباهلة ليست فقط إعلاناً عن تفوّق عقيدة الخاتم ﷺ على عقيدة وفد نجران، بل هي إحياءً بنظام مخصص وهو: أن مقام "النفس المحمدية" لا يتوقف، بل يستمر عبر الذين تجلّت فيهم الصفة، لا الاسم. فالإمام علي عليه السلام، في الآية، هو "نفس" النبي ﷺ لا باعتباره ابن عمّه، بل لأنه كان الوعاء الكامل لسرّه، فمن تحقق بهذه المرتبة بعده، صار امتداداً لهذه النفس المباركة، وشاهداً جديداً على المقام.



ومرة أخرى نُكرر الإجابة عن سؤال جدير بالطرح وهو: لماذا لم يُذكر اسم الإمام علي عليه السلام ؟

الجواب: كما هو الحال في آية البلاغ، فإن اسم الإمام علي عليه السلام لم يُذكر صراحة لسبب أساسي وهو:

لو كان المقصود شخص الإمام لوحده، لذكر باسمه أما حين يكون المقصود هو المقام لا الشخص المسمى فلا يذكر الاسم.

إنَّ منطق البلاغ القرآني، قائم على ترميز المقامات لا تسمية الأفراد. فلو ذكر اسم الإمام علي عليه السلام صراحة لتحوّلت الآية إلى قصة ماضية، ولانحصر مدلولها في لحظة غابرة، بينما إبقاؤها بصيغة (أنفسنا) يجعلها حيّة، قابلة للتجدّد، تفتح المجال لكل زمن أن يشهد "نفساً محمدياً" جديداً يتحقق في أحد الأولياء الوارثين.

فمن هو ممثل نفس النبي محمد ﷺ في كل عصر؟ إنه الشيخ

الكامل، الواصل إلى مقام الصفاء، الذي يستطيع أن يدخل ميدان
المباهلة بصدق، لأن نور النبي ﷺ يسري في روحه، ويُستأنف فيه بلاغ
النبوة

آية المباهلة، كما آية البلاغ، تُحيل إلى مبدأ قرآني متكرّر: لا تُبلّغ
الرسالة بالكلمة فقط، بل بالوارث المحمدي. والوارث ليس بالضرورة
وارث دم، بل وارث نور.

وارث النور هو الذي إن حضر، حضر النبي ﷺ في سره، وإن نطق،
نطق الوحي في حكمته.

الخلاصة هنا: إن حدث المباهلة ليس حدثاً وقع ثم انقضى، بل هو
قانون من قوانين الهداية في القرآن فحواه: أن الكذب يُدفع بالنور، وأن
الله إذا أراد أن يُظهر الحق، أخرجه على لسان من هو "نفس" الحق،
حتى لو لم يكن نبياً.



التَّجْدِيدُ فِي فَهْمِ آيَةِ: (وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا)

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33]

هذه الآية الكريمة، وإن وردت ضمن سياقٍ يتعلّق بأحكام نساء النبي ﷺ، فإنها تنفصل من حيث التركيب النحوي، وتتصل من حيث النور بمعنى أوسع وأعمق. فقد نقلت الخطاب من وصايا منزلية إلى بيان مقامٍ روحيٍّ، وعرّفتنا على فئة مخصوصة من الناس، أُريد لها أن تكون محلّ الطهارة الإلهية ومهبط النور: أهل البيت (عليهم السلام).

وقد اتفق المفسرون من الفريقين، مع تعدد رواياتهم، أن هذه الآية نزلت في الخمسة الذين جمعهم النبي ﷺ تحت الكساء: (محمد، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين) صلوات ربي وسلامه عليهم، وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا»⁽¹⁾. فجاءه الوحي مؤيّدًا دعاءه، منزلًا هذه الآية توثيقًا سماويًا لما دعا به.

ووفقا لما نؤمن به فإنّ المقصود من "أهل البيت" في هذه الآية الكريمة ليس بمقتصر على النسبة أو الصلة العائلية الظاهرة، بل هي لتشكّل المقام الذي يؤهّل أصحابه لحمل النور، والقيام بوظيفة البلاغ القرآني. فالإرادة الإلهية التي جاءت بصيغة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾، بيّنت أن الغاية من هذا الخطاب ليست إعلامًا عابرًا، بل بيان لمقامٍ قدسي، أساسه نفي الرجس، وإثبات الطهارة.

1 - انظر: الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص 355.

الطُّهر في هذا السياق إذن، ليس مجرد تزكية خُلقية، بل مقام وجودي يجعل من أهل البيت مظهرًا للحقيقة النبوية، بحيث يصيرون مع الكتاب الثقل الثاني، ومصدر الهداية المستمرة، كما ورد في حديث الثقلين: ﴿إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِثْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ﴾⁽¹⁾

إِنَّ مَنْ يُطَهِّرُهُ اللَّهُ تَطْهِيرًا، ويذهب عنه كل رجس، لا يُراد له الاعتزال في البيوت، بل يُؤَهَّل للقيادة الباطنة، ويحمل النور من بعد النبوة.

وقد أكّد حديث الثقلين أن العترة المُطهرة ليست محلًّا للمودة فقط، بل مرجعًا للهداية، ومصدرًا للتذكير، تقف بجانب الكتاب، لا خلفه.

فهذا التطهير يُعيد تشكيل مفهوم "البلاغ" في الإسلام: فليس كل من نطق بالحق بلغه، بل مَنْ تَطَهَّر قلبه وتجلّى فيه النور، ذاك هو الذي يُبلِّغ بما هو أكثر من اللفظ: يُبلِّغ بالحال، بالحضور، بالمقام. ومَنْ كان من أهل البيت بهذا المعنى، فهو استمرار حيٍّ للنبوة، وإن لم يكن نبيًّا.

وكما في آية البلاغ، وآية المباهلة، يتواصل منطق القرآن الكريم بأسلوب الإشارة المقامية لا التسمية الفردية. ذلك أَنَّ الاسم يقيّد، والمقام يُحرّر.

لو ذُكر الأكارم (علي أو فاطمة أو الحسن أو الحسين سلام الله تعالى عليهم) بأسمائهم لارتبطت الآية بزمناها، وتحولت إلى قصة حَبَرِيَّة، بينما التعبير بـ "أهل البيت" يجعلها نصًّا حيًّا، يستمر عبر العصور، ويتجدد في من تحقق بالمقام، لا بالنسب.

1 - الطبراني، المعجم الكبير، حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط 2، رقم الحديث [4980]، ج 5 ص 169.

مُحَمَّد نور بابه عَلَيَّ

القرآن لا يؤسّس لنسبِ الدم (الوراثة الابوية)، بل لنظام نوراني،
أساسه الطهارة، وسنده الوراثة الروحية، وجوهه البلاغ المستمر

الطهر في هذه الآية الكريمة لا يُمنح شرفاً، بل يُؤتي وظيفة.

هو ليس بتاج يُتفاخر به، بل عبادة من نور يُحمل بها السرّ.

والتطهير لا يُقصد به مجرد العصمة من أثر الذنب، بل هو رفع
لدرجة القابلية لاحتضان سرّ النبوة، والقيام مقامها في الإرشاد،
والتعليم، والتزكية. لذلك، فإن أهل البيت هم تجلّ باطني للرسالة، بل
هم الحضور المستمر للبلاغ، ولو بصيغة غير نبوية.

وهنا تتجلّى حقيقة: أن من أراد أن يكون من أهل البيت، فليكن من
أهل الطهارة. فإن كان له نسب، ولم يكن له نور، فهو محجوب. وإن
كان له مقام، ولو لم يكن له نسب، فهو من ورثة البيت في المعنى.



وقد يُطرح اليوم سؤال منطقي يقول: إذا كانت آية التطهير قد نزلت
في أهل البيت، كما تؤكد الروايات المتضافرة، فلماذا لم يظهر في تاريخ
الأمة نظام مؤسسي واضح يقرّ بقيادتهم؟ لماذا لم يتحوّل هذا المقام
النوراني إلى مرجعية دائمة في إدارة شؤون الدين، وظلّ كثير من
المسلمين يتعاملون مع العترة كمجرد رموز عاطفية أو كرامات فردية،
لا كقيادة هادية بالفعل؟

الجواب: هذا الاستشكال يفترض أن الحق لا يكون حقاً إلا إذا تبنّته
السلطة، أو تجلّى في مؤسسات الحكم. وهذا خلط بين التمكين
والحق، بين السياسة والسرّ.

بكلمات أخرى: القرآن الكريم لا يجعل القيادة الروحية مشروطة
بالظهور السياسي، بل بالحضور النوراني. والتاريخ البشري - ومنه
الإسلامي - لم يكن يوماً مرآة للحق المطلق، بل ساحة ابتلاء، واختبار

للقلوب: هل تتبع النور ولو كان مستورًا؟ أم تتبع السلطة ولو خلت من المعنى؟

في التنزيل الحكيم، لم يُشترط أن يكون حامل النور سلطانًا ظاهرًا. النبي نوح عليه السلام لم يكن من ملأ القوم ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا بِرَأْيِهِ وَمَا تَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾⁽¹⁾.

والنبي يوسف عليه السلام كان في غيابة الجب، لا في عرش مصر. والصديقة مريم (صلوات الله عليها) كانت في المحراب، لا في القصر. ومولانا الإمام علي عليه السلام نفسه لم يكن حاكمًا إلا بعد ربع قرن من انتقال حضرة النبي محمد صلى الله عليه وآله، ومع ذلك، كانت ولايته النورانية قائمة في السر، ظاهرة للعارفين، خفية عن الغافلين.

وهكذا، فإن تغييب واحد أهل البيت من الساحة السياسية لا يعني انعدام مقامه، بل هو علامة على صدقه، لأنه بقي مقاماً لله، لا للناس. واليوم، لا يُطلب من الناس أن يعيدوا مجدًا زمنيًا، بل أن يجددوا إدراكهم لحقيقة النور، وأن يبحثوا عن "أهل البيت" في مقامهم لا في لقبهم، في حالهم لا في تاريخهم، في الشيخ الكامل الحاضر الذي يفعل النور، لا في الأسماء المجردة من المقام.

إن آية التطهير المباركة، بهذا المنطق المتجدد، لا تُعنى فقط بأهل البيت في لحظة ماضية، بل تؤسس لمبدأ خالد: أن الهداية لا تُحمل إلا في أوعية طاهرة، وأن التبليغ لا يتم إلا عبر من أذهب الله عنهم تعالى

مُحَمَّدٌ نَوْرُ بَابِهِ عَلَيَّ

الرجس. وبهذا، فإن مقام "أهل البيت" يُفتح في كل عصر، لمن تحقق بالطهارة، وورث النور، وكان من الذين يتلون آياته ويزكّون الناس ويعلمونهم الكتاب والحكمة.

إنها ليست آية تاريخ، بل آية قانون. قانون أن البلاغ لا يُستأنف إلا من بيتٍ لله تعالى ، مفعم بالطهر، يسكنه الذاكر، وينير فيه الحاضر. وهكذا تبقى الآية حيّة، طالما بقي في الأرض من يتطهر ليبلاغ، ومن يبلغ بالنور، لا بالكلام.



التَّجْدِيدُ فِي فَهْمِ آيَةِ: (الْمَوَدَّةُ)

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾

[الشورى: 23]

جاءت هذه الآية الكريمة في سياقٍ يخاطب النبي محمداً ﷺ ويأمره بأن يُعلن للناس حقيقة العلاقة بينه وبينهم: أنه لا يطلب منهم على رسالته مالاً ولا جزاءً، بل يطلب شيئاً وحيداً: "المودة في القربى". وهنا تبدأ الدلالة، لا من باب المعنى اللغوي، بل من باب المقام القرآني: فالمودة ليست شعوراً عابراً، بل حركة روحية متبادلة، تولد القرب، وتُفعل النور. وقد أجمع جمهور من المفسرين من السنة والشيعة، ومنهم: ابن كثير⁽¹⁾، والسيوطي⁽²⁾، والرازي⁽³⁾، والقرطبي⁽⁴⁾، والبيضاوي⁽⁵⁾، والطبرسي⁽⁶⁾، والطوسي⁽⁷⁾، والحلي⁽⁸⁾، على أن

- 1 - تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج 7 ص 201.
- 2 - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، مصدر سابق، ج 7 ص 348.
- 3 - التفسير الكبير، مصدر سابق، ج 27 ص 595.
- 4 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط 2، 1964م، ج 16 ص 22.
- 5 - البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط 1، 1418هـ، ج 5 ص 80.
- 6 - الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ج 9 ص 48.
- 7 - الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد حبيب قصير، د.م، مكتب الإعلام الإسلامي، ج 9 ص 158.
- 8 - الحلي، نهج الحق وكشف الصدق، تحقيق: عين الله الأرموي، قم، دارالهجرة، ص 175.

المقصود بـ"القربى" في هذه الآية هم قرابة النبي ﷺ من أهل بيته، وهم أئمتنا: (علي، وفاطمة، والحسن، والحسين).

لو كانت المودة المقصودة هنا عاطفة مجردة، لما جعلها الله أجراً للرسالة، ولما أمر النبي ﷺ أن يعلنها على الملأ بوصفها الدين الذي لا يُكتمل إلا بها. فليست هذه المودة تزكية لشأن قرابة النبي ﷺ، بل هي مدخل للهداية المستمرة، لكون القربى المشار إليهم ليسوا مجرد أقارب، بل حَمَلَةُ النور، وورثة السرِّ، والميزان الروحي الذي تُوزن به القلوب في مدى قربها من مقام النبوة.

فالمودة هنا ليست عاطفة تابعة للمشاعر، بل تكليف نابع من الوحي، يُظهر أن القربى المحمدية هم مرآة القرآن في الزمان، وأمانة الرسالة في الأرض، وأن العلاقة بهم ليست تبجيلًا، بل اتباعًا، لأنهم الهداة بعد النبي ﷺ، والصوت الحي الذي يُعيد للكتاب روحه.

من هنا نذهب إلى أن بلاغ الرسالة المحمدية لا يكتمل بمجرد نقل نصوص محفوظة، بل لا بد أن يعيش القرآن في إنسان، وأن ينعكس نوره في وجوه طاهرة، تسكن بين الناس، وتدلهم بالفعل لا بالقول.

وهؤلاء هم القربى في الآية: هم ليسوا حاشية، بل مركز دائرة البلاغ. فكما أن القرآن هو "الثقل الأول"، فإن المودة في القربى هي الطريق إلى "الثقل الثاني"، الذي لا يفترق عن الكتاب. وقد قال سيدنا النبي محمد ﷺ: ﴿إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِترتي أهل بيّتي، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ﴾⁽¹⁾.

1 - الطبراني، المعجم الكبير، مصدر سابق رقم الحديث [4980]، ج5 ص169

لهذا نحن موقنون بأن الآية الكريمة غير مقتصرة على مجرد دعوة للوفاء بحقوق النبي ﷺ، بل هي في واقع الحال، إعلان عن نظام الهداية القلبية، نظام مفاده: أن من أحبَّ القربى بصدق، انفتح قلبه على النور، لأن حبهم ليس حباً للذوات، بل انجذاب إلى المقام، واعترافٌ ضمني بأن للرسالة وجهاً حياً لا ينقطع، يتمثل في الذين يحملون نورها بعد النبي ﷺ، ويتولون تبليغها بالحال والذوق والمقام.

فالمودّة هنا لا تُطلب مُجاملة، بل تُؤمر بها أمراً، لأنها الخطوة الأولى في طريق الولاء الحقيقي، الذي ينقل الإنسان من ظاهر الدّين إلى باطنه، ومن حروف الرسالة إلى نورها.



في هذا السياق قد يستشكل البعض فيقول: إذا كانت "المودّة في القربى" ضرورة قرآنية، فلماذا لم تتحول إلى منهجٍ عملي في الأمة؟ لماذا اقتصرَت علاقة الناس بأهل البيت (عليهم السلام) على المناسبات، أو العواطف، دون أن تُبنى عليها الأنظمة الدينية والاجتماعية؟

الحق إن جواب هذا السؤال يكشف عن مشكلة عميقة، وهي: أن الناس تعاطوا مع "المودّة" كأمر وجداني، لا كأمر تكليفي. كما أنهم اعتبروا "القربى" مصطلحاً نسبياً، لا مقاماً نورياً. فتحوّلت العلاقة إلى احتفال، لا إلى اتباع.

لكن في المنطق القرآني، المودّة ليست خياراً، بل شرطاً لفهم الرسالة؛ لأن من لا يحب النور لا يهتدي به، ومن لم يعرف أهل البيت كحملة سرٍّ، لا يُفتح له باب الفهم الباطني للقرآن. وإن فُقدت المودّة، ضلّت الأمة عن الثقل الثاني، فاختلّ توازن الدين عند الفاقدين، وبقي الكتاب بلا شاهدٍ حي في قلوبهم.

إن غياب التفعيل العملي للمودّة، لا يُلغي الأمر، بل يكشف تقصيرًا بشريًا في إدراك مقام القربى، ويحمّلنا اليوم مسؤولية إصلاح الأمر: وذلك بأن نُلهِم الناس على العودة إلى القربى لا بالوقوف عند عتبة عاطفة الماضي -كما هو سائد منذ قرون-، بل باتمام ذلك في اتباع واحد القربى الحاضر، المتمثل في الشيخ الكامل الذي يحمل نور العترة، ويُفَعِّل وظيفة الهداية في الزمان، كمرآة للنبي ﷺ بالسرا بالنسب لوحده.

إن آية المودّة، بهذا الفهم المتجدّد، ليست دعوة إلى محبة مجردة، بل إلى اتصالٍ وجوديّ بمقام النور.

وهي لا تعني الحب الذي يُقال، بل الحب الذي يُتَّبَع، والذي يجعل من القلب مرآة، ومن العبد وارثًا.

المودّة في القربى هي بداية الطريق إلى الله تعالى، لا نهايته، وهي البلاغ الذي لا يُكْمَل الرسالة إلا حين يتحوّل من شعور إلى اتباعية، ومن عاطفة إلى ولاية، ومن احترام إلى تسليم.

فهكذا، تبقى الآية حيّة: تنادي كلّ جيل أن يحبّ من يستحق الحب، لسرّه قبل نسبه؛ وأن يسير خلف من ورثوا الحقيقة، لا مَنْ تلبسوا لقبها؛ وأن يجعل من المودّة بوابةً لفهم القرآن، وسُلماً للارتقاء في نور سيدنا محمد ﷺ، إلى الحضور الأبديّ للهداية في كل زمان.



﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا *
إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾
[الإنسان: 8-9]

في هذا النص القرآني العميق، تتجلى صورة من أبهى صور النور العملي: عملٌ خفيّ، صادر من قلب مطمئن، لا ينتظر عرفاناً، ولا يرجو مقابلاً، بل يتحرّك من جهة "وجه الله"، الذي لا يُرى، ولكن تُرى آثاره في وجوه أوليائه. إنها آية لا تتحدّث عن عبادة لاهوتية أو عن كرامة خارقة، بل عن فعلٍ بسيط: إطعام الطعام. ولكن تحت هذا الفعل البسيط تختبئ مرتبة من المقام الروحي لا يبلغها إلا من اختلطت ذاته بنور الله تعالى.

نقل المفسّرون من أهل السنة والشيعة على السواء - منهم الامام الرازي⁽¹⁾، والزمخشري⁽²⁾، والسيوطي⁽³⁾، والبحراني⁽⁴⁾، والقمي⁽⁵⁾ - أن هذه الآيات نزلت في (علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام)، عندما صاموا ثلاثة أيام نذراً، وفي كل يوم كانوا يفطرون على طعام

-
- 1 - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، مصدر سابق، ج30 ص746.
 - 2 - الزمخشري، محمود بن عمر، الكشّاف، بيروت - لبنان، دار صادر، ط 1، 1431 هـ، ج4 ص1727.
 - 3 - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، مصدر سابق، ج8 ص371.
 - 4 - البحراني، هاشم بن سليمان، البرهان في تفسير القرآن، بيروت - لبنان، دار إحياء التراث العربي، ط 1، 1429 هـ، ج10 ص78.
 - 5 - القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، قم. إيران، مؤسسة الإمام المهدي، ط 1، 1438 هـ، ج3 ص1122.

بسيط، لكنهم في كل يوم يُؤثرون به مسكيناً أو يتيماً أو أسيراً، ويبيتون طاوين، دون أن يشكوا، أو يمتنوا، أو يطلبوا جزاءً.

وهنا تتجلى المفارقة: لم يكونوا يُطعمون بدافع الواجب، ولا الطمع، ولا حتى الرحمة المجردة، بل ﴿لَوْجِهِ اللَّهِ﴾، وهو تعبير لا يعني فقط الإخلاص، بل يعني أنهم يرون في الجائع وجهاً للحق، وفي المحتاج وجهاً لله، وفي كل فقير حضوراً إلهياً خفياً.

ليست هذه الآية الكريمة مجرد إشادة بكرم إنساني، بل رسم لمعادلة قرآنية دقيقة: أن من أطعم لله، أطعم بنوره، وأن من رأى في الأسير وجهاً من وجوه الله، صار باباً من أبوابه. فليس الإطعام هنا فعلاً عابراً، بل مقاماً روحياً، يصدر عن أصحاب "النّية الكاملة"، أولئك الذين يضحّون بأجسادهم، لأن أرواحهم قد ذاقت القرب.

إن إطعامهم كان تعبيراً عن مقامهم، لا عن حالهم الاجتماعي. كانوا فقراء، لكنهم كانوا أغنياء بالله تعالى. وكانوا صائمين، لكنهم يفيضون بالرحمة. وهكذا، يكون الفعل الظاهري – وهو الإطعام – مجرد قشرة، تحبّئ في داخلها جوهرة من مقام الولاية.

إن قوله تعالى ﴿لَوْجِهِ اللَّهِ﴾ هو جوهر الآية. فالوجه هنا ليس مجازاً عن "نية صالحة" فحسب، بل هو تعبير عن اتجاه كامل نحو الحضرة الإلهية. من يعمل لله لوجهه، لا يعمل من نفسه، بل من مقام الفناء فيه. وهذا ما فعله أهل الكساء، حين جعلوا أنفسهم مرآة للرحمة، لأنهم أرادوا المجد، بل لأن النور تحرّك من خلالهم.



قد يستشكل البعض فيقول: لماذا لم يجعل الله "آية أهل البيت" معجزةً خارقة مثلاً؟ لماذا كان "الإطعام" هو موضع الثناء والتنزيل؟
الجواب: لأن أعظم المقامات لا تظهر في الأفعال الكبرى، بل تتخفى

في البسائط. ولأن السرّ الحقيقي لا يُختبر في المظاهر، بل في لحظة اللقاء بالضعيف. وهؤلاء الأطهار، أطعموا من قلة، وأخفوا العطاء، ورفعوا النية، فجعل الله فعلهم سبباً في نزول سورة كاملة - هي سورة الإنسان - التي ابتدأت بحديث الخلق، وانتهت بحديث الجنّة، وكان اوسطها هذا المقام الرحمانيّ الذي مثّلوه

فالله اختار "الإطعام" لأنه عملٌ مشترك بين الجميع، لكنه جعله معياراً للفرز: من أطعم ليُرى، حُجب، ومن أطعم لوجه الله، كشف الله له وجهه.

وربما يُطرح سؤال معاصر: هل يكفي أن يُطعم الإنسان ليكون من أهل المقام؟ فكثير من المنظمات الخيرية اليوم تطعم آلاف الفقراء، فهل كلهم على هذا المقام الذي بلغه فاطمة وعلي وذريتهم؟

الجواب: الفرق ليس في الفعل، بل في السرّ.

فهناك إطعام من وفرة، وهناك إطعام من فقر.

هناك من يعطي ليُعرف، وهناك من يعطي وقد نسي نفسه.

وأهل هذه الآية الكرام، لم يُطعموا طعاماً فقط، بل قدّموا ذاتهم.

كانوا جائعين، فأشبعوا غيرهم، وكانوا مجهولين، فلم يطلبوا اسماً أو ذكراً. بل قالوا ما لا يقوله إلا مَنْ ذاب في نور الله: ﴿لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً﴾.

إن المُطعم الحقيقي هو مَنْ يُشبع بالجسم، ويحيي بالروح. فالإطعام الروحي لا يقف عند الخبز، بل يتجاوزه إلى بلاغ الحبّ الإلهي، الذي يتجلى في كل عمل رحمة خالصة.

إذن: آية الإطعام، في ظاهرها عمل، وفي باطنها مقام.

إنها لا تتحدث عن سلوكٍ فردي، بل ترسم ملامح "العبد الكامل"،

مُحَمَّدٌ نَوْرُ بَابِهِ عَلَيَّ

الذي بلغ من التجرد أن يطعم ليرضي الله وحده، لا ليشبع حاجة فقط.
فهؤلاء الذين أطعموا – أهل البيت – لم يكونوا مجرد أفراد
صالحين، بل كانوا تجلياً للرحمة، ونموذجاً للولاية التي تتجلى في
البسط، لا في الترف؛ في العطاء الخفي، لا في الفخر الظاهر؛ في الانسحاق
من أجل الآخرين، لا في التعالي باسم الدين.

وهكذا، تصبح هذه الآية بلاغاً نورانياً صامتاً: أن الولاية لا تُنال بنقل
الاقوال، ولا تُدعى بالنسب، بل تُعاش بالرحمة الخالصة، وتُرى في
البذل، وتُعرف من أولئك الذين قالوا وفعلوا: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ
اللَّهِ﴾.



التَّجْدِيدُ فِي فَهْمِ آيَةِ: (وَالسَّابِقُونَ)

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَدَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ
النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: 10-12]

في قلب سورة الواقعة، حيث يُفَرِّزُ الناسُ أصنافاً وَيُرَتِّبُونَ مراتب، تأتي هذه الآيات الثلاث لتُعلن عن فئة متفردة لا يُقاس فضلها بالعدد، ولا تُوزن بكثرة العمل، بل تُعرف بصفة وحيدة: أنهم (السابقون).

اللافت في أسلوب القرآن أنه لم يُفصِّح عن أسمائهم، ولا أوصافهم الجسدية أو الاجتماعية، بل اكتفى بهذه التسمية المطلقة المكررة: "السابقون السابقون". تكرر فيه تقرير وتقدير، يشير إلى مقام لا يُدرك إلا بذوق خاص، وتذكرة نورانية تدل على أهل الله الخُلص، الذين لم يتأخروا لحظةً عن النداء، ولم يلتفتوا إلى غيره.

أجمعت روايات كثيرة من الفريقين - السنة والشيعة - أن الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام هو أحد أبرز المصاديق المقصودة بهذه الآية، إن لم يكن أولها. فقد ورد في "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير⁽¹⁾، و"روح المعاني" للآلوسي⁽²⁾، و"الدر المنثور" للسيوطي⁽³⁾، و"الميزان"

1 - مصدر سابق، ج 7 ص 128.

2 - الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1، 1994، ج 14 ص 134.

3 - مصدر سابق، ج 8 ص 6.

مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

للطباطبائي⁽¹⁾، أن علياً عليه السلام كان أول من أسلم من الصبيان، وسبق
الناس في الإيمان والاتباع، ولم يشرك بالله طرفة عين.

لكن الآية لا تقتصر على التاريخ، ولا تتجمد عند شخص، بل تقرر
"نموذجاً"، أو ما يسميه المنطق القرآني بـ "المقامات". فـ (السابقون)
ليسوا فقط من سبقوا في الزمن، بل من سبقوا إلى النور، إلى الفهم، إلى
تسليم القلب، وصدق الانقياد

يُحيلنا مفهوم "السبق" في النص القرآني إلى نوع من الإدراك الذي
يتجاوز المحسوس، ويتصل بالغيب. فالسابق الحقيقي هو الذي
عرف النور قبل أن يُذاع، وصدق قبل أن يشتهر، وتحمل قبل أن
تُفرش الطرقات بالبسط. وبهذا المنطق، فإن الإمام علي عليه السلام كان
سابقاً لأنه أول من وعى الحقيقة المحمدية، وسكن تحت لوائها وهو
فتى، لا بفعل التربية فقط، بل بانجذابٍ روحي سابق على سنّ
التمييز.

تُخبرنا الآية أن هؤلاء "السابقين" هم المقربون. وهذه النقلة في
الوصف تكشف سرّاً: أن السبق ليس رتبة عابرة، بل مدخل إلى
حضرة، وأن الله لا يقرب أحداً بعمله المجرد، بل بسرّه. فمن سبق إلى
الفهم، سبق إلى القرب. ومن سجد أولاً، سكن حضرة الله طويلاً

وهذا المعنى يطابق الروايات التي تصف علياً بأنه كان يرى ما لا
يراه الناس، ويسمع ما لا يسمعون، حتى قال له النبي ﷺ: ﴿أَنْتَ مِنِّي
بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى﴾.

1 - الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، قم، دار المجتبى، ط 1، 1430 هـ، ج 19 ص 122.

ليست هذه الآية مجرد وصفٍ لفئة مضت، بل هي بيان عن نظامٍ إلهي: أن في كل عصر هناك "سابق"، وأن طريق الهداية لا يخلو من منارة أولى، من قلبٍ يُفتح قبل غيره، من شيخٍ يكون مرآة النور قبل أن يُشاع.

فكما أن الإمام عليّ عليه السلام كان "السابق" في زمن البعثة، فإن كل زمن يحتاج إلى من يقوم بوظيفة "السبق"، ليشهد النور قبل ظهوره العام، ويمهّد لانتشاره، ويكون حجة باطنة على قومه.



قد يُقال اليوم: إذا كانت "السابقة" بهذا المقام، فلماذا لا يُعرف أصحابها في العلن؟ ولماذا يبدو أن الزمان يفرز دائماً أهل التقدم في المال أو السياسة، بينما السابقون في الإيمان غالباً ما يُقصّون أو يُهمّشون؟

الجواب: لأن السبق في القرآن ليس سبق ظهور، بل سبق حضور. وأن الله تعالى لا ينظر إلى ما تراه العيون، بل إلى القلوب. وقد اقتضت سنن الابتلاء أن يكون "السابق" مختفياً في البدايات، وأن يُعرف في النهايات. فآدم كان سابقاً، ثم نُزل، ونوح عليه السلام كان سابقاً، ثم أُوذي، وإبراهيم عليه السلام كان سابقاً، ثم أُلقي في النار، والنبي محمد صلى الله عليه وسلم كان أول "السابقين" إلى التوحيد، ثم عاش سنين الخفاء والعزلة، والآذَى. والإمام عليّ عليه السلام نفسه، كان في الغالب صامتاً في عصر الخفاء، يتكلم بالحكمة، لا بالمنبر، ويحمل السرّ، لا السيف. فالسبق في منطق الدين امتحان، لا مكانة ظاهرية.

وبهذا الفهم، ندرك أن الآية تحرّضنا على إعادة تعريف القُرب من الله تعالى: ليس من يعلو في مناصب، بل من يسبق إلى الله تعالى دون أن يراه أحد.

مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

إن الشيخ الكامل في كل زمان، هو ذلك "السابق الصامت"، الذي ينظر الناس إليه فلا يعرفونه، بينما يعرفه الله تعالى ويقرب به.

إن "السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ" هم شهادة قرآنية على أن لله تعالى في كل جيل طليعة، تتقدم من حيث لا يُنتظر منها، وتفتح للناس باب النور من حيث يظنون الظلمة.

إنّ هذه الآية، وإن نزلت في شأن قوم مخصوصين، فإنها تُعلن قانوناً مستمراً: أن لله دائماً "أول أهل السرّ"، من يسبق إلى المحبة، ويعيش في مقام القرب، وإن لم يُعرف اسمه.

وفي هذا النور، نفهم أن علياً عليه السلام لم يكن فقط أول المسلمين، بل كان "السابق النموذجي"، الذي يفتح للأمة باب الاقتداء، ويجسد في سيرته آية القرآن.

فما زالت الأمة تحتاج إلى أن تكتشف "سابقها" في كل زمن، لأنه لا هداية بلا منارة، ولا قرب بلا باب، ولا "جنة نعيم" بلا طليعة أخلصت وتقدّمت.

﴿السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ هم البداية، وهم البلاغ، وهم المعيار، بل هم الباب.



التَّجْدِيدُ فِي فَهْمِ آيَةِ: (لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)

﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: 84]

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: 50]

هذه الدعوة المباركة التي صدرت من قلب خليل الرحمن ﷺ، ليست طلباً لمديح عابر، ولا أمنية أن يُذكر اسمه في كتب التاريخ، بل هي طلبٌ مقامٍ باطنيٍّ، أن يُجعل له ناطقٌ بالحق، شاهدٌ لحاله، مُجدِّدٌ لدعوته في الأجيال التي تأتي بعده.

الآية، في ظاهرها، تحمل دعاء النبي إبراهيم ﷺ أن يبقى له ذكرٌ طيب، ولسانٌ يمدحه بين المتأخرين. وقد فسَّرها جمهور المفسرين على هذا الوجه، فجعلوا "لسان الصدق" هو الثناء الجميل، والكلمة الطيبة التي يتركها الرجل الصالح في أمته، كما في تفسير الطبري لها:

«قوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾، أي واجعل لي في الناس ذكراً جميلاً، وثناءً حسناً، باقياً في من يجيء من القرون بعدى»⁽¹⁾. لكن الإمام الفخر الرازي، وفي لمحة إشراقية، يفتح تأويلاً أعمق، حيث فيقول: أن نبي الله إبراهيم ﷺ «سأل ربه أن يجعل من ذريته في آخر الزمان من يكون داعياً إلى الله تعالى، وذلك هو محمد ﷺ فالمراد من قوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ بعثة محمد ﷺ»⁽²⁾.

وهذا الوجه، وإن جاء عرضاً في التفسير، إلا أنه في ميزان أهل الإشارة

1 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج 17 ص 594.

2 - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، مصدر سابق، ج 24 ص 516.

مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

هو الوجه الأوضح، لأن الصدق هنا لا يُطلب في القول المجرد، بل في المقام: مقام من ينوب عن الوليِّ بعد رحيله، فيحمل سره، ويتكلم بلسانه، ويواصل دعوته بالحضور الفاعل لا الراوي الناقل.

(لسان الصدق) في الآية ليس صوتاً خارجياً، بل هو لسان المقام النوراني الذي يستأنف خط النبي إبراهيم عليه السلام، ويحيي شعلة التوحيد كلما أوشكت أن تخبو.

إن طلب النبي إبراهيم عليه السلام أن يكون له لسان صدقٍ في الآخرين، يفهم ضمن سنن الوراثة النورانية، التي اقتضت ألا تنطفئ أنوار الأنبياء برحيل أجسادهم، بل تبقى قائمةً في ورثةٍ روحيين، يُبعثون على مقاماتهم، ويتكلمون بألسنتهم، ويُقيمون الحجة باسمهم.

ولذلك فإن هذا الدعاء القرآني، حين نقرؤه في ضوء الولاية، يفتح المعنى على امتداد أن كل وليٍّ صادق في أمته، إنما هو لسان صدقٍ لنبيٍّ من أنبياء الله تعالى، يجري في الورثة كما يجري الماء في العروق، لا يُرى بالعين، لكنه يمنح الشجرة خضرتها.

وإذا تأملنا في الأمة المحمّدية، فإن أول من تجسّد فيه هذا المعنى بعد النبي صلى الله عليه وآله هو الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، لا على جهة النسب فحسب، بل على جهة الحقيقة: فكان لسان صدق النبي صلى الله عليه وآله في الحاضرين، ولسان صدق النبي إبراهيم عليه السلام في الآخرين، لأنه جمع بين العلم، والسر، والفداء، كما جمع النبي إبراهيم عليه السلام بين التوحيد، والبلاء، والهداية.

وقد صدّق هذا المعنى ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله ﴿أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ

بَابُهَا⁽¹⁾، فهو باب المدينة، ولسان حالها، والمبْلَغ عن ساكنها. ولسان الصدق لا يكون عند الباب إلا إذا نبع من المدينة.

ومن بعد الإمام علي، لم تنقطع هذه الوراثة، بل جرت في مشايخ الطريق، الذين لم يحدّثوا عن أنفسهم، بل كانوا ألسنةً للغيب في زمانهم. من أهل المحبة، وأصحاب الذكر، وسالكي طريق السر، الذين تكلموا بما أودع في قلوبهم، لا بما حفظوه في صدورهم.

فالمقصود من دعاء النبي إبراهيم عليه السلام، أن يُجعل له في كل زمن لسانٌ حيٌّ، يشهد للحق، وينطق عنه بصفا، ويذكر الناس بالنبوة لا بوصفها ماضياً منتهياً، بل بوصفها نوراً جارياً.

وما الطريقة الصوفية إلا هذه السلسلة المباركة من "ألسنة الصدق" التي تتحدث في كل عصر عن مقام من سبق، لا لتكرره، بل لتستأنفه في وجه جديد، يوافق الحال، ويُلبس الحقيقة لبوس الزمان. ومن أنكر وجود لسان الصدق في الحاضرين، فقد أغلق باب الدعاء الإبراهيمي، وجعل النبوة جثةً بلا ظلّ.

﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ هي الآية التي فتحت للعالم باب الوراثة الروحية، بأن لكل نبيٍّ لساناً ناطقاً في الآخرين، ولكل حقيقة شهيداً معاصراً لها، ينطق باسمها وإن لم يكن نبياً، ويحمل سرها وإن لم يُوحَ إليه.

وكل من نطق عن مقام، أو دعا إلى سرٍّ، أو أحيا ذكراً حياً للحقيقة في

1 - الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1، 1990م، رقم الحديث [4637]، ج 3 ص 137.

زمانه، فهو امتداد لهذا الدعاء الإبراهيمي، ولسانٌ صادقٌ يتلو عن الله آياتٍ لم تكتبها الأقلام، بل نبضت بها الأرواح.



من جانب آخر: حين دعا إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾⁽¹⁾، كان يطلب من الله أن يكون له في الأجيال القادمة من يُجدد دعوته، وينطق بالحقيقة التي عاشها، لا بوصفه راوياً لتاريخه، بل شاهداً على نوره

لم يكن طلباً للمدح، بل تأسيساً لخط رُوحِيٍّ لا ينقطع، يشهد به أهل الله في كل زمان على حقيقة التوحيد، ويُقيمون به الحجة للحق في وجدان الناس.

وهذا المعنى لا يبقى معلقاً في سماء الرجاء، بل يستجاب له في آية أخرى جاءت بصيغة تقرير وبيان: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾⁽²⁾، فهذه الآية هي في الحقيقة استجابة صريحة للدعاء السابق، حيث يُظهر الله تعالى أن مقام لسان الصدق الذي طُلب قد تحقق، وجُعِلَ للأنبياء ولسان الحق فيمن يأتي بعدهم

إننا هنا أمام تضامٍ بياني بين الآيتين:

- واحدة تُفصح عن الدعاء (الشعراء)،

- وأخرى تُعلن عن الاستجابة (مريم).

فكأنَّ القرآن الكريم يعقد خيطاً سرياً بين الزمنين: من قلب النبي إبراهيم عليه السلام إلى امتداد الولاية في الآخرين.

1 - [الشعراء: 84]

2 - [مريم: 50]

الفارق بين الآيتين لا يُفهم بلغة الزمان وحده، بل بلغة المقامات الروحية:

﴿وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾: مقام الطلب الروحي، من قلب الخليل الذي أدرك أن التوحيد لا يكتمل إلا بوارث له ينطقه من بعده
﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾: مقام الإجابة، وقد تحقق جعل اللسان، لكن ليس أي لسان، بل "عليًّا" أي رفيعاً في المقام، عالياً في الشهود، متصلاً بالحضرة العليّة.

وهنا تتكشف الحقيقة العميقة: أن "لسان الصدق في الآخرين" هو بعينه "لسان الصدق العليّ"، فالعليّة ليست وصفاً صوتياً، بل علوّ مقام وروحيّة وقدرة على حمل السرّ.

فإذا قرأنا الآيتين معاً، أو قاطعناهما مع بعضهما، فسنجد أن الثانية تُفسّر الأولى تفسيراً إشارياً ووجودياً.

اللسان الذي طلبه النبي إبراهيم عليه السلام أن يكون له في الآخرين، قد جعل له ولسائر الأنبياء، لا بمديح الناس، بل بمقام يُعَيِّنُهُ الله من بين خلقه، ليكون هو الناطق بالحقيقة نيابةً عنهم.

فلسان الصدق في الآخرين = لسان الصدق العليّ.

وما كلمة "عليًّا" في سياق سورة مريم إلا ترميز صوفي دقيق يُحيل إلى المقام، وإلى من يحمل مقام الولاية والصدق في الزمان اللاحق.

وهذا يقودنا إلى الإمام علي عليه السلام، لا بوصفه من الآل أو صحابياً، بل بوصفه أول من تحقق في مقام "اللسان العليّ" بعد سيدنا النبي محمد صلى الله عليه وآله، ناطقاً بالحكمة، حاملاً للسرّ، باباً للمدينة، وظلاً ناطقاً عن النور. ثم تستمر هذه الوراثة، بالسرّ الجاري في مشايخ الطريق وورثة الولاية، الذين يتعاقبون في كل عصر، كل واحد منهم لسان صدقٍ

لعصره، ناطق بالحقيقة بلغته، مؤتمنٌ على المقام وإن اختلف الزيُّ
إن آية ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ هي في الحقيقة مرآة مُضيئة
لآية ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾، والآيتان معاً تُنشئان منهجاً
قرآنياً في الوراثة الروحية، حيث يكون لكل نبيٍّ لسانٌ ناطقٌ بعده،
يتكلم بالحقيقة، ويحيي الاسم بتمثيله حساً ومعنىً.



قد يتساءل بعضهم:

كيف يمكن أن نفسر آية ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾، أو دعاء
﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾، على أنها تشير إلى الإمام علي
عليه السلام، أو إلى مشايخ الولاية في الأمة، والآيتان في سياقهما الظاهر
تحدثان عن الأنبياء السابقين، لا عن أئمة أو أولياء جاءوا بعد سيدنا
النبي محمد ﷺ؟ أليس في ذلك تجاوز لحدود النص؟ بل وربما تحميل
له ما لا يحتمل؟

الجواب:

هذا الاستشكال، وإن بدا مفهوماً من منظور القراءة الحرفية
المحضة، إلا أنه يُغفل البنية المقامية العميقة التي يتأسس عليها
الخطاب القرآني. فالقرآن ليس كتاب تاريخ، بل كتاب سُنينٍ ومقاماتٍ
جارية. والمقامات التي يُشهد لها في الأنبياء، لا تنحصر في زمانهم، بل
تجري فيمن يحمل سرهم من بعدهم.

فدعاء النبي إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ هو
طلبٌ لامتدادٍ روحي، لا يكتفي بالحفاظ على الأثر، بل يطلب لساناً ناطقاً
بالحقيقة في الأجيال القادمة. وآية ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾
ليست حصراً زمنياً، بل إعلان عن استجابة مستمرة لهذا الدعاء، تتجلى
في كل من ورث المقام وتكلم عن الله بصدق الحال لا بمجرد القول.

فالقرآن حين يقرر جعل "لسان الصدق العليّ" للأنبياء، فإنه لا يُقيد الأثر بزمانهم، بل يُثبت أن مقام البلاغ الصادق عن الله لا ينقطع، بل يُستأنف في كل عصر عبر من تحقق بوراثة النور، ووراثة المقام.

وهذا المعنى هو عين ما يتجلى في جدنا الإمام عليّ عليه السلام، الذي كان أول من ورث مقام النطق الصادق بعد ختم النبوة، لا باعتباره نبياً، بل لأنه لسان المدينة النبوية، والمُعَبَّرُ الأول عن سرّها.

ومن بعده، توالى الألسنة الصادقة في أولياء الله، الذين لم يتكلموا من عند أنفسهم، بل نطقوا بالحقيقة الموروثة، وكانوا لسان صدق في الآخرين، أي: امتداداً حقيقياً للوعد الإلهي المتكرر في الآيتين.

إن لسان الصدق العليّ هو "شاهد الحقيقة" في كل عصر. ليس شخصية تُحكى، بل مقامٌ يُستودَع، ولسانٌ يُبعث من جديد، ليُجدد الشهادة لله، ويُقيم الحجة على الناس من داخل الزمان.

ومن أنكر هذا اللسان في زمانه، فقد أغلق على نفسه باب الشهود، وعطّل مقام الاستجابة، واحتجز النور في سجن التاريخ.

فالايتان - معاً - لا تتحدثان عن ماضٍ مضى فقط، بل تُعلنان أن في كل عصر: هناك لسان صدق يُبعث، عليّ في مقامه، ناطقٌ عن ربه، حاملاً سرّ الأمانة الخالدة.



التَّجْدِيدُ فِي فَهْمِ آيَةِ: (مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ)

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: 207]

جاءت هذه الآية في سياقٍ عام من التفريق بين أصناف الناس في موقفهم من البلاغ المحمدي، لكنها تحمل في جوفها وصفاً لحالة نادرة من حالات الفناء في الله تعالى، حالة من يبيع نفسه لا لعرض من الدنيا، ولا بطلبٍ من الناس، بل ابتغاءً لرضا الله وحده. فهي بذلك لا تصف مجرد عمل من أعمال الإيثار، بل تكشف عن قمة من قمم المقامات الروحية، حيث تتحوّل النفس إلى قربان، ويصبح الفداء فعلاً واعياً صادراً عن معرفة، لا حماسة، وعن سكينة، لا انفعال.

وقد ذكر الإمام الرازي - وغيره من الفريقين - أن هذه الآية نزلت في الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، حين بات في فراش النبي صلى الله عليه وآله ليلة الهجرة، مفتدياً إياه بنفسه، وموقناً أنه قد يُقتل، لكنه لم يتردد ولم يتراجع، بل أسلم نفسه لله تعالى، مطمئناً إلى الرضا وإن كان الموت⁽¹⁾.

الآية تستخدم لفظاً بالغ الرهافة والعمق: "يشري"، وهو من الشراء، لا من البيع، إذ الشاري هو من يدفع لنيل شيء⁽²⁾. فالإنسان في الآية

1 - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، مصدر سابق، ج5 ص350.

2 - لفظة (شري) من الفاظ الاضداد، تأتي بمعنى: أخذه بثمن، وبمعنى: باع. يقول ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: " (شري) أصول ثلاثة: أحدها يدل على تعارض من الاثنين في أمرين أخذاً وإعطاءً مماثلة. راجع: طبعة دار الفكر، 1979م، ج3 ص266.

يشتري رضا الله تعالى، وثمان الشراء هو النفس. وهذه اللغة مفعمة بدلالة: أن النفس ليست مجرد شيء يُسَلَّم قهراً، بل تُقدَّم بإرادة واعية، كما يُقدَّم المريد قربانه طواعية في طريق الحب.

ومن هذا المنطق، لا يمكن اختزال فعل الإمام علي عليه السلام ليلة المبيت في فراش النبي صلى الله عليه وسلم في كونه شجاعة جسدية أو مجرد وفاء عشائري، بل هو فعل روحي محض، يُعبّر عن مقام لا يبلغه إلا من ذاب في الإرادة الإلهية، وفني في التسليم المطلق لمشيئتها.

تصف الآية هذا الفعل بأنه "ابتغاء مرضاة الله"، وليس نيل الجنة، أو طلب الأجر، أو الفوز بالشهادة، مع أنها كلها نتائج حميدة.

إن هذا التركيز على "الرضا" يلفت إلى مقام خاص لا يتحرك فيه الإنسان من طلب لنفسه، بل من شهودٍ للحق، وسعيٍّ لأن يكون محله في عين الله تعالى، لا في أعين الناس.

فالذي يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى، لا يطلب مقابلاً، بل يطمئن إلى أن رضى الله سبحانه هو الكفاية، وهو الوجود، وهو الغاية.

ما تقرره هذه الآية في الإمام علي عليه السلام، ليس خاصاً به وحده، بل هو كشف عن مبدأ قرآني: أن البلاغ لا يتم إلا إذا قام على فداءٍ روحي. فكما افتدى النبي إسماعيل عليه السلام بالذبح العظيم، وألقي النبي إبراهيم عليه السلام في النار صابراً، ومضى الإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء عارفاً، فإن هذا النوع من الفداء هو سلوك من اصطفاهم الله ليكونوا أمناً سره، وحملة نوره.

المعنى هنا أوسع من الحادثة: إنه مقام في سلم الولاية، لا يرتقى إليه إلا من جرد نفسه من طلب النجاة، وعاش في طلب الرضا، حتى لو كان فيه فناؤه.



مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

قد يُقال: أليس في هذه الآية نوع من الترويج للتضحية بالنفس بطريقة غير عقلانية؟

هل يمكن اعتبار الفداء بالنفس نموذجاً يُحتذى في زمن يعلو فيه صوت الحقوق، وتُرفض فيه ثقافة الفداء إن لم تكن مبنية على مصلحة محسوسة؟

الجواب: الفرق الاساسي هنا هو أن الآية لا تتحدث عن انتحار، ولا عن تهوّر، ولا عن تضحية عاطفية مؤقتة، بل عن فداءٍ صادر من بصيرة.

إن من "يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله" لا يفعل ذلك بدافع غضبٍ أو يأس، بل بدافع المحبة والمعرفة، والاهم الاضطرار لا الاختيار. في التنزيل الحكيم، النفس لها قدر عظيم، ولا تُطلب إلا لمن يعرف مقامها. وقد أعاد الإمام علي عليه السلام هنا - في لحظة خفية لا ضجيج فيها - تفعيل خطّ الأنبياء، الذين باعوا أنفسهم لله تعالى، فأحيا الله بهم أدياناً وقلوباً وأمماً.

إن مقام الفداء بالنفس لا يُطلب ولا يُعمم، لكنه يُشهد. إن آية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ ليست سرداً لبطولة فحسب، بل إشارة إلى مقامٍ فريد، هو مقام من أتم التسليم، وأسلم النفس بلا تردد، لأنه كان قد خرج منها أصلاً

التَّجْدِيدُ فِي فَهْمِ آيَةِ: (أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ)

﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾⁽¹⁾.

هذه الآية القصيرة - بنصها الموجز وتركيبها الاستفهامي - تفتح أفقاً كبيراً من التمييز بين نوعين من الهداة:

- من يهدي إلى الحق.

- ومن لا يهدي إلا أن يُهْدَى.

وهو تمييز قرآني بالغ الرصانة، يُفرّق بين من هو موصول بالحقيقة من ذاته، ناطقٌ بها من مقامٍ وجوديٍّ، وبين من يتلقى الهداية كشيءٍ يُعطى له، فينقلها بعد أن يتلقاها، لكنه لا يصدر عنها من جوهره

الآية تسأل الجميع: من الأحقُّ أن يُتَّبَعَ؟

ذلك الذي ينطق عن عين، أم من لا ينطق إلا إذا سُمِحَ له؟

من يسير بالناس إلى الحق لأنه يراه، أم من يتَّبِعَ غيره ثم يدلّهم؟

ومن لا يُهدي إلا أن يُهْدَى؟ هل يملك نور الطريق أم مجرد خارطة؟ ثم تأتي الجملة الختامية: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، وكأنها تصفع العقل الغافل، الذي يساوي بين الناطق باسم النور، والمردد لكلام سمعه من بعيد

يخطئ من يظن أن "من يهدي إلى الحق" هو كل واعظ أو معلّم أو داعية.

مُحَمَّد نور بابه عَلَيَّ

الآية لم تقل "يُذَكِّر بالحق" أو "يُبَلِّغ الحق"، بل قالت: "يُهدي إلى الحق"، أي أنه بنفسه دليل، وبذاته طريق، وبه يُعرف الحق، لا العكس. هذا مقام خاص لا يُنال بكثرة العلم، ولا يُستخرج بكثرة الكتب، بل يُوهب لمن صار هو نفسه آية.

وهذا الوصف ينطبق أول ما ينطبق على النبي محمد ﷺ، ثم على الذين ورثوا مقامه من بعده، من أهل البيت الأطهار والأولياء الكاملين الأبرار، الذين لم يكونوا ناقلين للهدى، بل كانوا بأنفسهم مظاهر له. نعم، هناك فئة من الناس، قد يكونوا صالحين، أو طلاب علم، أو عباداً مطيعين، لكنهم لا يصدر عن مقام في الهداية، بل ينتظرون من يدلّهم، ويحتاجون إلى من يسبقهم، ولا يستطيعون أن يكونوا مراجع نور لغيرهم.

وقد وقع الخلل في تاريخ الأمة حين سُوي بين الفئتين، وأُعطِيَ من لا يهدي إلا أن يُهدي مقام القيادة، بينما حُجِب من يهدي إلى الحق لأن هدايته كانت باطنة.

القرآن الكريم هنا لا ينطق عن رجلٍ محدد، بل يضع معياراً للأتباع في كل زمن. فكل جيل مطالب أن يميّز بين من يُهدي بنوره، ومن يهتدي بغيره. بين من يتكلم عن الحق لأنه شاهده، ومن يردده لأنه حفظه.

وفي المدرسة الصوفية، "من يهدي إلى الحق" هو الشيخ الكامل، واحد الزمان. إنه من صار قلبه مرآةً للحق، فانطوى فيه الكتاب، وتجلّى فيه المقام.



قد يُطرح اليوم تساؤل عقلائي:

إذا كان المعيار هو من "يُهدي إلى الحق"، فكيف نعرفه؟

وكيف نميّزه من الدجال أو المتمصوف؟

ألا يفتح هذا الكلام الباب على مصراعيه لمن يدّعي الهداية بلا دليل ظاهر؟

نقول: جواب هذا السؤال في الآية الكريمة نفسها: من يهدي إلى الحق هو من إذا خالطته ذكرك بالله، وإذا سمعته أضاء قلبك، وإذا نظرت إليه انكشفت لك مرآتك. لا يقول لك "أنا"، بل "هو" أو "هم". لا يطيل الطريق، بل يوصله.

كما أن الله ربط الهداية الحقّة بـ "الحق"، لا بالرأي، ولا بالاتباع، ولا بالعصبية. فالذي يهدي إلى الحق هو الذي يقودك إليه سبحانه، ولو كلفك أن تهجر نفسك.

في ضوء المقام، يمكن أن يفهم من الآية الكريمة أن الإمام علي عليه السلام هو من مصاديق من "يهدي إلى الحق" لأنه لم يكن ينقل علماً، بل يجسّده بسلوكه، ولم يكن يتكلم بالدين فقط، بل كان يرى فيه الدين، ولذلك قال النبي ﷺ: ﴿عَلِيٌّ مَعَ الْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ مَعَ عَلِيٍّ لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ﴾ (1).

إن آية ﴿فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾، لا تُطرح سؤالاً بل تُعطي جواباً:

نعم، من يهدي إلى الحق هو أحق بالاتباع.

نعم، من يتكلم عن الله من قلبه، لا من لسانه، هو الإمام، والباب،

1 - الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین - ط العلمية، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1، 1990م، رقم الحديث [4628]، ج 3 ص 134.

مُحَمَّد نور بابه عَلِيّ

والدليل. نعم، الشيخ الكامل، من تحققت فيه صفات الهداية النورانية،
أحق من غيره أن يُتبع، حتى لو خفي على الناس، لأن الحق لا يُعرف
بكثرة أتباع، بل بشهادة الروح.

إنها دعوة لاختيار جديد في كل زمن: من الذي إذا تبعته، بلغك إلى
الحق؟ ذاك هو أحمق من يُتبع.

خُلاصَةُ الْفَصْلِ الثَّالِثِ

القرآن كتاب حي يتكلم عبر الزمان:
لا يُقرأ القرآن كتأويل جامد أو وثيقة ماضية، بل بوصفه مصدر هداية
حي يتفاعل مع القلوب الصافية، ويُستنطق من موضع الاتصال
بالحقيقة المحمدية، عبر بابها المفتوح.

الرؤية النورية لتجديد الفهم:

الفهم الجديد لا يعني القطيعة مع الأصول، بل هو وفاء للنور
المتصل، وشهود حي للمعاني في سياقها الحاضر، لا بالمجردات
العقلية بل بالحال والاتصال الروحي.

السؤال المحوري حول الجمع والمفرد:

لماذا استخدمت الآية صيغة الجمع رغم أن الواقعة فردية؟ الجواب
الشائع (الترغيب بالاقتداء) غير كافٍ، لأنه لم يحدث انتشار لفعل
مشابه في واقع المؤمنين.

الفهم النوري: وحدة النور وتعدد المظاهر:

الإمام علي هو مظهر أول لحقيقة النور المحمدي، وكل ورثته
يحملون نفس النور. لذا فالفعل الذي صدر عنه إنما صدر عن كل باب
للولاية، باطنيًا، في جميع الأزمنة.

تفسير تعدد الصيغة بصيغة الجمع:

صيغة الجمع تشير إلى الامتداد الباطني للولاية، لا إلى جمع فعلي
لذات الفعل، فالفعل الظاهري وقع من واحد، لكنه يحمل دلالة باطنية
على جمع نوراني ممتد.

مُحَمَّد نور بَابُهُ عَلَيَّ

الوراثة الروحية للباب:

كل شيخ يحمل مقام الباب في زمنه يورث فعل الإمام، لا من حيث الصورة بل من حيث النور. وهكذا فكل من آتى الزكاة من مقام الباب، فإنما هي امتداد لفعله الأصلي.

منطق "الفاعل الباطن":

الولاية ليست ظاهرة لحظة واحدة فقط، بل مقام دائم متصل، يظهر بفرد ويُعَبَّر عنه بجمع، لأن حقيقته ممتدة فيمن بعده.

التجلي القرآني لا يتوقف:

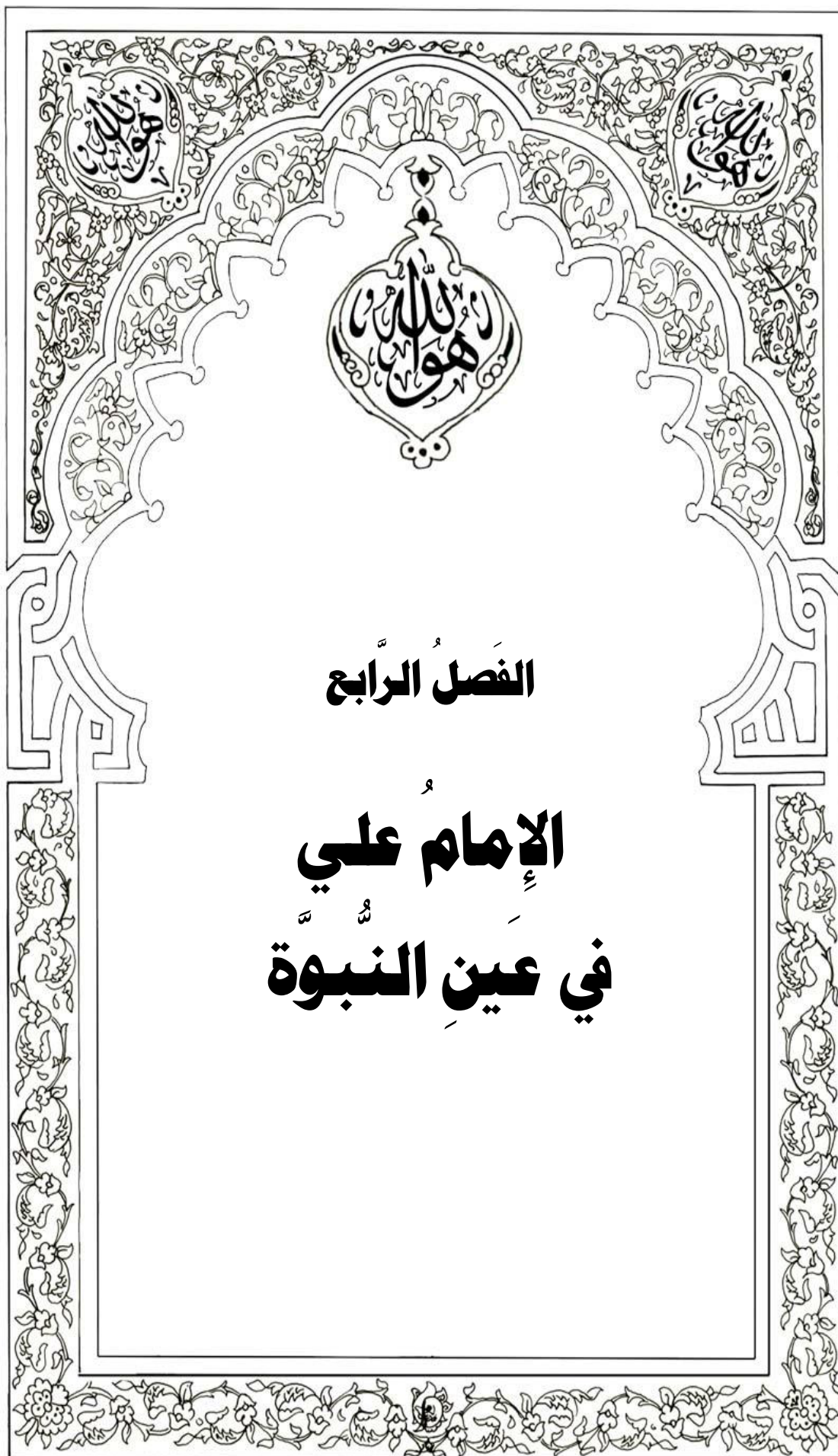
حين يحضر الباب، تُفتح المدينة، ويُستنطق القرآن من جديد، فتتجدد آياته وتتكشف أسرارها في كل عصر، لأن القرآن حيّ ما دام النور فيه متصلاً.

الربط بين الولاية والنور المحمدي:

الإمام علي عليه السلام هو أول من جمع الولاية والباب والنور في شخصه، لكنه لم يكن آخرهم من حيث الفعل، بل أول سلسلة ممتدة تُفَعِّل النور وتُفهم به الآيات.

خلاصة المبدأ:

قراءة آية الولاية من مقام النور تضيء: أن صيغة الجمع هي شهادة قرآنية على استمرارية الولاية، وتوحيد الباطن في مظاهره المتعددة.



التَّجْدِيدُ فِي فَهْمِ رِوَايَةِ: (أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ)

قال ﷺ ﴿أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي﴾⁽¹⁾.

حين يتحدث النبي ﷺ بلغة المقامات، لا يصح أن نفهم كلامه بمقاييس السياسة أو مفاهيم الوراثة المجردة. ليس جملة عاطفية عابرة، بل إشعار بحقيقة باطنية، تتجاوز كل ما يمكن أن تدركه عقول الترتيب السياسي. ما كانت النبوة في يوم من الأيام وظيفة تُورث، ولا الخلافة الروحية منصباً يُتداول، بل هي إشراقات تُلقَى في قلوب مستعدة، تتسع لنور الله تعالى، وتتجلى فيها أنوار من سبقوها. في هذه الكلمة، فتح النبي ﷺ باباً لا يُغلق، بين فيه أن ما كان بين النبيين؛ موسى وهارون (عليهما السلام) من المقام، هو عين ما بين النبي والولي محمد وعلي (عليهما الصلاة والسلام). لم تكن منزلة هارون من موسى (عليهما السلام) مجرد معاون إداري أو ظل سياسي، بل كانت منزلة المُتَمِّم في الطريق، الشارح في الغياب، الحاضر حين يُخاطب القوم، والولي إذا سكن النبي موسى ﷺ في الطور.

الاستثناء "إلا أنه لا نبي بعدي"، وهو استثناء لا يُنقص من قدر

1 - صحيح البخاري، المحقق: د. مصطفى ديب البغا، (دار ابن كثير، دار الإمامة) - دمشق، الطبعة: الخامسة، 1414 هـ - 1993 م، ج4 ص1602.

الإمام عليّ عليه السلام، بل يزيده وضوحاً:

فهو ليس بنبي، لكنه وارث النبوة. وليس برسول، لكنه حامل السِّرِّ.

ليس صاحب وحي، لكنه مستودع الفهم عن الوحي.

ليس مدينةً، لكنه بابها الأوحد.

لذلك، كان لا بد أن يُفهم مقامه بلغة النور، لا بلغة الحكم.

أهل الطريق فهموا هذا الحديث على أنه إعلان عن بداية سلسلة من الولاية، لا تقوم على اختيار الناس، بل على اصطفاء الروح، ولا تُقاس بما دار في السقيفة⁽¹⁾، بل بما يفيض من هذا الباب على من بعده من أهل الله تعالى.

"منزلة هارون" لا تعني أن عليّاً خلف النبي صلى الله عليه وآله في مقام التشريع، بل في مقام التفسير الروحي، التأويل الإشاري، التزكية، التربية الروحية، فتح القلوب... أي في المقام الذي يجعل من الإمام باباً، ومن السالكين صحابة في السير، لا أتباعاً في الصورة.

1 - سقيفة بني ساعدة: هي موضع شهير في المدينة المنورة كان مملوكاً لقبيلة بني ساعدة من الأنصار، وكان عبارة عن مكان مسقوف أو مظلل يجتمع فيه القوم للتشاور وإدارة شؤونهم العامة.

في التاريخ الإسلامي، اشتهرت سقيفة بني ساعدة بالاجتماع الذي عُقد فيها عقب انتقال النبي محمد صلى الله عليه وآله إلى العالم الآخر، حيث اجتمع الأنصار للنظر في مسألة خلافة النبي صلى الله عليه وآله وقيادة الأمة. فرشّحو سعد بن عباد زعيمهم للخلافة، عادين أن لهم فضل النصر والهجرة. ولما علم المهاجرون بالأمر، بادروا إلى السقيفة وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح، فتدارسوا الموقف، وأوضح أبو بكر أن الخلافة لا تكون إلا في قريش لكونهم أولى الناس بالنبي صلى الله عليه وآله. جرى حوار فيه شيء من التوتر والجدل حول الأحقية، حتى انتهى الأمر بمبادرة عمر لمبايعة أبي بكر، فلحقه المهاجرون والأنصار، ووقعت بذلك أول بيعة سياسية عامة في المجتمع المسلم. بذلك صارت "السقيفة" ترمز في الفكر الإسلامي إلى أول مشهد حراك سياسي في تاريخ الأمة المحمدية.

مُحَمَّد نور بابه عَلِيّ

حين يُقال في الطرق الصوفية: أن الإمام عليّ عليه السلام هو باب الولاية، فلا يُقال ذلك طائفيًا، بل معرفيًا، ولا يُراد به العصبية، بل البصيرة.

الإمام علي عليه السلام الباب الأول بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وآله، لا في الخلافة الزمنية، بل في سريان النور.

يقول حضرة السيد الشيخ السلطان الخليفة محمد محمد الكسنزان (قدست أسرارهِ المباركة): «الخلفاء بعد رسول الله على نوعين: الأول، خلفاء الباطن أو الروح وأولهم إمامنا علي بن أبي طالب عليه السلام. والثاني، خلفاء الظاهر، وهم الخلفاء الراشدون ومن تبعهم»⁽¹⁾.

في كل شيخ عارف بالله تعالى، نفس من ذلك الباب.
وفي كل صحبة صادقة، ظلّ من تلك المنزلة.



قد يُقال: إذا كان هذا الحديث يُشير إلى مقام روحي وباطني، وإلى سلسلة من الولاية المتصلة بالتّور، فلماذا لم يُفهم بهذا الفهم عند عامة المسلمين؟ ولماذا غلب عليه الفهم السياسي أو الطائفي، حتى صار يُداول وكأنه دليل صراع على السلطة، لا دليل إشراق على المقام؟

الجواب:

هذا الاستشكال يكشف عن الحاجة إلى التجديد في الفهم، وضرورة إستعادة النص إلى سياقه الأصلي.
إن هيمنة الفهم السياسي أو الطائفي على مثل هذا الحديث

1 - الشيخ محمد محمد الكسنزان، موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، حرف الخاء، ج3 ص273

الجليل، لم تكن وليدة روح النص، بل نتاج تداخل التاريخ بالبشر، وميل النفوس إلى قراءة المعاني العظمى بعين الهوى، لا بعين البصيرة. فسيدنا النبي ﷺ لم يكن ليُخاطب الأمة بلغة تثير صراعاً دنيوياً، وهو الذي بُعث رحمةً للعالمين، وإنما كان يُشير إلى مقام باطنيٍّ عظيم، مقام الاصطفاء الروحي والوراثة النبوية، مقام التزكية والهداية المُستمرة بعد ختم النبوة

لقد غُيِّب هذا البُعد الروحي لاحقاً تحت غبار التاريخ، وبات الحديث يُتداول في ساحة الجدل بدل ساحة الذكر.

بقليل من التأمل أو التدبر يتبين أنّ منزلة هارون من موسى (عليهما السلام) لم تكن ولاية دنيا بل دين، لم تكن ولاية سُلطة بل قلب. وهكذا هي منزلة جدنا الإمام عليٍّ من سيدنا محمد (صلوات الله تعالى عليهما)، كانت منزلة فتح باب إلى الله تعالى عبر الحضرة المحمدية، ومفتتح طريق رحمةٍ لا يُغلق.

إنَّ غلبة الفهم السياسي ليست حجةً على روح الحديث، بل دليل على تقصير أكثر العقول وقصور أغلب القلوب.

وأنَّ التجديد في فهم هذا النص هو في إرجاعه إلى محرابه الأول: مقام الباب، مقام الولاية، مقام البصيرة. فمن باب عليٍّ يبدأ السالك طريقه إلى المدينة، ومن ورثته يمضي النور متصلاً غير منفصل، ومن صحبة أهل الذكر يتجدد الحال، في كل زمانٍ، بعيداً عن الصراع، قريباً من الله تعالى.

التَّجْدِيدُ فِي فَهْمِ رِوَايَةِ: (رَايَةُ الْكَرَّارِ)

في يوم خيبر قال سيدنا النبي ﷺ: ﴿لَأُعْطِينَ الرَايَةَ غَدًا
رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، كَرَّارٌ غَيْرُ فَرَّارٍ،
يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ (1)

عندما أعلن سيدنا النبي ﷺ عن "الرجل الذي يحب الله ورسوله
ويُحِبُّهُ الله ورسوله"، ثم سلّمه الراية، كان يُعلن بصورة عملية عن
شيء أعمق من القيادة العسكرية: إنه فتح رُوحِي موصول بالمحبة
المتبادلة التي لا تمنح إلا لمن كان باباً للحقيقة بعد النبوة.

إن الإمام علي في تلك اللحظة لم يُعيّن فقط كقائد معركة، بل
كـ"موضع السر"، أي من تُسند إليه مفاتيح المحبة الخاصة، التي عبّر
عنها الصوفيون لاحقاً بكلمة "الطريقة".

هذه المَحبة لا تُمنح بالعاطفة المجردة، بل بالاصطفاء، ولا تُعطى
بالميراث الحسي، بل بالاستعداد القلبي. ولهذا قال ﷺ: "يحب الله
ورسوله ويحبه الله ورسوله"، فبدأ بالفعل من العبد، لا من الرب،
إشارة إلى أن القلب هو من يستعد أولاً، فيُفتح له الباب.

هذه اللحظة – كما قرأها حضرة السلطان الخليفة محمد المُحمّد
الكسنزان (قدست أسرارهِ المباركة) – هي لحظة تأسيس مفهوم
(باب الطريقة)، فقال: «الراية تعني سلسلة مشايخ الطريقة، فهي

1 - صحيح البخاري، مصدر سابق، حديث رقم [3498]، ج3 ص 1357

تمثل إعلان الاعتقاد الجازم بهم ابتداءً من أول من استلم هذه الراية، وهو مولانا الكرار عليه السلام وانتهاءً بالشيخ الحاضر، وبكل ما جاءوا به ودعوا إليه من الحق اليقين»⁽¹⁾.

الإمام علي عليه السلام لم يكن باباً ببيعة الولاية وحدها، بل بالراية أيضاً. والراية هنا ترمز إلى (الفتح)، و(العهد)، بل ترمز إلى الأقدام الذي تراجع فيه (كرار غير فرار)، أي إلى مقام المَحَب فيه مكر غير مفر، مقبل غير مدبر، فهل سُمع بعاشق يفكر مرتين في حضرة محبوبه! فإن هذه الواقعة كشفت عن أن للهمة أهلاً يمضون بها عبر الأزمان قدماً رافعين راية الطريقة، راية المحبة، ليحققوا النصر المطلوب في القلوب.



قد يتساءل متسائل: أليس في ربط واقعة تسليم الراية للإمام علي عليه السلام بمفهوم "باب الطريقة" و"الفتح الروحي" تأويل يتجاوز ظاهر النص؟

أليس ظاهر الحدث عسكرياً صرفاً، يخص القيادة في ميدان القتال، دون لزوم تحميله معاني الطريقة والسر والوراثة الروحية؟
الجواب:

ليس الأمر كذلك، إلا إذا تعاملنا مع حضرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم على أنه ملك أو حاكم من حكام الدنيا الآخرين، والحق أنه ليس كذلك، ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾⁽²⁾ فكل ما يأتي به من قول أو فعل أو شأن فذي صلة

1 - موسوعة الكسنزان، ج10 ص237

2 - [الفتح: 29]

مباشرة أو غير مباشرة برسالة الله تعالى، بدينه، بالجانب الروحي.
يعني: الوقائع النبوية ليست نصوصاً جامدة ولا أحداثاً معزولة، بل هي تجليات للحقائق الكبرى في قوالب الزمن والمكان. ومن تأمل الحديث بعين البصيرة، رأى أن النبي ﷺ ما كان ليقول: ﴿رجلاً يُحب الله ورسوله، ويُحبه الله ورسوله﴾ في مقام معركةٍ فحسب، فالمعارك تُحسم بالقوة، لا بالمحبة. لكنه ﷺ أراد أن يُظهر أن النَّصر في الظاهر إنما ينبثق من النَّصر في الباطن، وأن راية الفتح لا تُرفع بيد الجسد قبل أن ترفعها يد الروح.

تسليم الراية للإمام عليّ عليه السلام في ذلك الموطن كان إعلاناً خفياً جلياً أن القيادة في الظاهر لا تُؤتي إلا لمن تحقق في الباطن.
الراية في ظاهرها لواء المعركة، لكنها في باطنها لواء الطريقة، لواء المحبة، لواء الولاية.

ولو كان الأمر مقتصرًا على التدبير العسكري، لكان أولى بالنبي ﷺ أن يصف المستلِم بصفات القائد الحربي أو الشجاع المحنك. لكنه ﷺ وصفه بميزان المحبة: ﴿يُحب الله ورسوله، ويُحبه الله ورسوله﴾. فما دَخَلَ هذه المحبة لو كان المقام مقام حربٍ فحسب؟!

إنَّ ما أشار إليه حضرة السلطان محمد المحمد الكسنزان (قدست أسرارهِ المباركة) هو هذا العمق، لا تأويلاً مفتعلاً، بل كشفاً لحقيقة مَطْوِيَّة في ظاهر الواقعة، مُتَحَقِّقَة في الإمام علي عليه السلام، وسارية في كل وارث متحقق بنور الباب وراية الطريقة.

إذن: الراية التي رُفِعَت يوم خيبر كانت إعلاناً بأن راية الطريق لا يحملها إلا قلبٌ كَرَّار في محبة الله تعالى ورسوله ﷺ، لا يفرّ، ولا يتردد، ولا يقف بينه وبين محبوبه شيء.

التَّجْدِيدُ فِي فَهْمِ رِوَايَةِ: (عَلِيٌّ مِنْنِي وَأَنَا مِنْ عَلِيٍّ)

قال عليه السلام: ﴿عَلِيٌّ مِنْنِي وَأَنَا مِنْ عَلِيٍّ، وَلَا يُؤَدِّي عَنِّي إِلَّا أَنَا أَوْ عَلِيٌّ﴾⁽¹⁾.

هذا النص ليس مجرد بيان لعلاقة قرب أو عاطفة، بل هو كشف لحقيقة وجودية تتصل بسير النور المحمدي في العالم، وانتقاله من النبي عليه السلام إلى الإمام علي عليه السلام، ومنه إلى الورثة الذين يحملون سره، وصولاً إلى الشيخ الحاضر في كل زمان. قوله عليه السلام: (عَلِيٌّ مِنْنِي)، يعني أن علياً متصل من باطن النبوة لا من ظاهرها فقط.

فهو ليس مجرد تابع مخلص، بل حامل لسرٍّ يؤتمن عليه، لأنه خرج من جوهر النبوة، وانصهر في نورها.

أما قوله عليه السلام: (وَأَنَا مِنْ عَلِيٍّ)، فليس تعبيراً عن التقدير فقط، بل عن استمرار النور المحمدي من خلال الإمام علي عليه السلام، بحيث يصبح الإمام علي عليه السلام أكثر من كونه وارثاً لنور الحقيقة المحمدية، بل معبراً له إلى من يليه، وممرّاً له فيمن يأتي بعده.

في الطريقة الكسنزانية، تُفهم هذه الرواية على أنها تعبير أصيل عن مصطلح السلسلة الروحية. فمن الإمام علي عليه السلام بوصفه باباً، ينتقل النور إلى أولياء الله تعالى المنصبين لهذا المقام، واحداً بعد واحد، حتى

1 - الترمذي، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، 1996 م، رقم الحديث [3719]، ج6 ص83.

مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

يصل إلى الشيخ الحاضر، الذي يحمل اليوم ما حمله الإمام علي عليه السلام بالأمس، يحمل: سرّ القرب، وحقيقة الذكر، ومرآة النور المحمدي في هذا الزمان.

بهذا المعنى، فإن قوله ﷺ (وأنا من عليّ) يتضمن إعلاناً بأن سيدنا محمد ﷺ لم يُغادر الأمة باحتجاب الجسم، بل حقيقته لم تنزل حاضرة، يبايعها المؤمنون في كل زمان (يداً بيد).

الشيخ الحاضر، في هذا النور، ليس شيخاً كسائر المشايخ، بل هو تجلّ حيّ لباب الدخول إلى الحضرة، كما كان الإمام علي عليه السلام في زمنه باب المدينة المقدّسة.

والمُريد، حين يبايع، لا يبايع شخصاً، بل يُسلم قلبه لهذا النور الجامع للسلسلة، ليقدّم بذلك شهادته على أن الطريق لا يُفتح إلا عبر من فُتح له. فكل مريد صادق، حين يدخل إلى حضرة الذكر، إنما يدخل في امتداد هذا النور، الذي لم ينقطع، بل استمر كما قال النبي: (وأنا من علي). وهكذا، فإن هذا الحديث الشريف لا يُروى فقط، بل يُعاش.



لقائل أن يقول: إذا كان هذا الحديث يدل على سريان النور واستمرار السلسلة الروحية كما فهمتم، فلماذا لم يتكرر مثل هذا النص في حق من جاء بعد الإمام علي عليه السلام؟

يعني: لماذا لم يُصرح النبي ﷺ بنفس الصياغة أو بقريب منها في شأن الحسن أو الحسين أو من يليهم من الأئمة والورثة، إذا كانت هذه السلسلة مقصودة ومستمرة إلى يوم الدين؟

الجواب: هذا سؤال دقيق، يدل على طلب الحقيقة لا الجدل، وجوابه في لبّ طبيعة السلسلة الروحية ذاتها.

حضرة النبي محمد ﷺ حين قال: ﴿عليّ مني وأنا من عليّ﴾، لم يكن

في وارد تعداد الأبواب أو تفصيل السلسلة اسماً اسماً، بل كان بصدد الإعلان عن القانون الروحي الذي به تُعرف الأبواب في كل زمان.

الإمام عليّ عليه السلام لم يكن حلقة في سلسلة تُذكر أسماؤها جملةً واحدة، بل كان المبدأ، والباب الأول، والظهور الأكمل للوراثة الروحية بعد ختم النبوة

إن السلسلة الروحية لا تقوم على النصوص الظاهرة وحدها، بل على السّنة الباطنة، سنة النور الذي يُسريه الله تعالى فيمن اختارهم لحمل الأمانة. ولهذا لم يكن المطلوب من النص النبوي أن يُحصي الأسماء، بل أن يضع الميزان الذي يُعرف به الورثة: من كان من النور، ومَن مِنَ النور كان، كما كان عليّ عليه السلام.

الإمام عليّ عليه السلام هو الذي أُقيم دليلاً على المبدأ، ليكون كل وارث بعده معروفاً بهذا المبدأ لا بهذا الاسم أو ذاك. ولهذا كان الصادقون من أهل الطريق لا يتوقفون عند الاسم، بل ينظرون إلى المقام: إلى باب المدينة، إلى حامل النور، إلى الشيخ الحاضر الذي يتحقق فيه معنى ﴿عليّ مني وأنا من عليّ﴾.

إن النبوة ختمت، لكن الحقيقة المحمدية لم تُختم، وما أعلنه سيدنا النبي صلى الله عليه وآله في الإمام عليّ عليه السلام كان إعلاناً عن القاعدة الكلية، لا عن التفصيلات الجزئية، لأن النور يُعرف بآثاره لا بأسمائه، والباب يُفتح بالتحقق لا بمجرد الوصف.

من هنا كان كل شيخ محقق في السلسلة إنما يشهد لهذا النور، وإن لم يُذكر اسمه في نص، لأن روحه تشهد، وحاله يعلن، وفتحه يدل.

إذن: كان قول النبي صلى الله عليه وآله في الإمام عليّ عليه السلام بمثابة إعلان دستوري للروح، قائم إلى يوم الدين، تعرف به السلسلة، ويتجدد به العهد، ويبقى به الباب مفتوحاً لمن صدق.

التَّجْدِيدُ فِي فَهْمِ رِوَايَةِ: (عَلِيٍّ مَعَ الْقُرْآنِ)

قال ﷺ: ﴿عَلِيٌّ مَعَ الْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ مَعَ عَلِيٍّ لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ﴾⁽¹⁾.

هذا الحديث يُظهر أن العلاقة بين الإمام علي عليه السلام والقرآن الكريم لم تكن علاقة طالب بكتاب، ولا حافظٍ بمصحف، بل علاقة تماهٍ وتجلٍّ ومرافقةٍ وجوديةٍ.

الحديث لا يقول: علي مع المصحف، بل مع القرآن، والفرق كبير؛ لأن القرآن في هذا المقام يُفهم كنور إلهي نازل، متجدد، غير محصور في أوراق أو ألفاظ، بل يمتد في الأرواح، ويتجسّد في القلوب التي أهلها الله لحمله. قول النبي ﷺ: ﴿عَلِيٌّ مَعَ الْقُرْآنِ﴾، يعني أن سلوك الإمام علي عليه السلام، في فهمه، ونطقه، وفعله، وذوقه، كلّهُ على وفاق تام مع القرآن الكريم، لا مجرد مطابقة ظاهرية، بل مطابقة باطنية.

أما قوله ﷺ: ﴿وَالْقُرْآنُ مَعَ عَلِيٍّ﴾، فهو الوجه الأشد بلاغة، لأنه يعني أن القرآن الكريم، من حيث هو هداية إلهية حيّة، يتحرك مع حركات الإمام علي عليه السلام، يُترجم من خلاله، يُفهم عبره، يُحيا في شخصه. وهنا تظهر وظيفة الباب في أعلى تجلياتها: أن القرآن الكريم، وإن كان محفوظاً في المصاحف، إلا أن فهمه الكامل، وإشراقه الباطني، لا يُنال إلا عبر من يُرافقه هذا النور، ويكون موضعاً لتنزلاته.

1 - الحاكم النيسابوري، حَقَّقَهُ وَخَرَّجَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ: عادل مرشد، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، 1439 هـ - 2018 م، رقم الحديث [4679]، ج5 ص581.

وفي الرؤية الكسنزانية، هذا الحديث يؤكّد أن عليّاً لم يكن مجرد حامل لسيف، بل حامل لسرّ، والسّرّ هو أن القرآن الكريم لا يُفهم إلا من خلال قلبٍ عاش معه، وتمثّل فيه، واستمر من خلاله.

من هنا، يأتي دور الشيخ الحاضر في الطريقة الصوفية، لا بوصفه معلّماً فقط، بل بوصفه الوارث الحيّ لهذا النور القرآني العلوي. فالطريقة ترى أن القرآن لا يزال حيّاً في قلوب الرجال، وأن عليّاً لم ينفصل عن القرآن، بل كل من سلك مسلكه بصدق وإذن، كان القرآن معه والقرآن فيه.

وقوله ﷺ: ﴿لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ﴾، هو إعلان أن التلازم بين الإمام علي عليه السلام والقرآن الكريم ليس ظرفياً ولا تاريخياً، بل مُستمر إلى نهاية الزّمان، من خلال الورثة.

قوله ﷺ: ﴿لَنْ يَتَفَرَّقَا﴾ فيه دلالة صريحة على التلازم الظاهري والباطني، وهذا لا يتحقق إلا بانتقال النور عبر سلسلة مشايخ الطريقة، وإلا فمن المستحيل أن يبقى الإمام علي عليه السلام بشخصه الظاهر حياً إلى يوم القيامة.

فكما أن النبوة لا تورّث إلا عبر الباب، فإن القرآن الكريم لا يُعاش إلا عبر الورثة، فالنور لا يتبعض، والسّر لا يُسلم إلا لمن تأهل له. لذا، الذي يطلب القرآن الكريم بمعزل عن بابه، أي عمّن يحمل سره في زمانه، فإنما يتلو دون أن يشهد، ويسمع دون أن يذوق. والذي يُبايع الشيخ، وهو لا يدرك أنه يدخل في سلسلة قرآن حيّ، فقد أخذ البيعة شكلاً لا حقيقةً.



قد يُثار سؤال: ما المقصود بذكر الحوض في الحديث ؟
هل الحوض هنا إشارة إلى موضع بعينه في الآخرة، أم أن له دلالة

مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

أعمق تتصل بحقيقة الطريق، وغاية التلازم بين الإمام علي عليه السلام والقرآن الكريم، وبين الورثة والكتاب؟

الجواب: هذا سؤال عميق يلامس جوهر العلاقة بين النور المحمدي، والورثة الروحية، ومآل الناس.

إن النبي صلى الله عليه وآله حين جعل غاية التلازم بين الإمام علي عليه السلام والقرآن الكريم "الحوض"، لم يقصد نهاية التلازم عند هذا الموضع، بل أشار إلى نهاية الحاجة إلى الوسائط عند تحقق المشهد الأكبر، عند مقام الجمع الأعظم، عند اللحظة التي تنكشف فيها الحقائق بلا حجاب، وتفيض الأنوار بلا باب.

الحوض هنا رمز، لا لموضع مائي، بل لمقام اللقاء الجامع، حيث تلتقي السلسلة كلها عند عين النور الأول، فلا يعود للحجاب معنى، ولا للواسطة لزوم، لأن المريدين والورثة والأنوار كلها تلتقي عند مصدرها: عند حضرة النبي صلى الله عليه وآله.

فغاية الحوض تعني غاية الطريق: أن كل تلازم، وكل باب، وكل سلسلة، وكل وارث، غايتهم جميعاً أن يردوا بالحال إلى حضرة النبوة الكاملة، حيث يُرَوَّوْنَ من النبع الصافي، ولا يبقى للواسطة دور بعد الفيض الأعظم.

إن الحوض هو المشهد الذي تنتهي عنده مقامات التفاضل، لتذوب في مقام الفضل المطلق. فليس الحوض نهاية التلازم، بل ذروته وتمامه: إعلان أن كل باب، وكل وارث، وكل تلازم بين علي والقرآن، بين الورثة والكتاب، إنما مآلهم أن يردوا على الحوض، مجتمعين في عين النور.

فالحوض ليس حداً، بل هو مقام اكتمال المسير، حيث تتجلى الحقيقة المحمدية في أبهى ظهورها، وتعود السلسلة بكل حلقاتها إلى يد المصطفى صلى الله عليه وآله، ليشرب منها كل صادق، ويغترف منها كل محب، بلا واسطة.

التَّجْدِيدُ فِي فَهْمِ السُّنَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ: (السُّنَّةُ النَّاطِقَةُ)

قال ﷺ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِثْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»⁽¹⁾.

كثيراً ما يُختصر الحديث عن السنة النبوية في الروايات المدونة، أو الأحاديث المصنّفة في كتب الصحاح والمسانيد. وكأنَّ السُّنَّةَ توقف نبضها عند لحظة التدوين، وكأنها انقلبت من حياةٍ ناطقة إلى حروفٍ صامتة.

لكن الحقيقة التي غابت عن كثير من الأذهان أنَّ السُّنَّةَ، حين يُنظر إليها بعين المحبة والبصيرة، ليست مجرد أقوال محفوظة، بل هي حالٌ متجدد، وسرٌّ يسري، وخلقٌ ناطقٌ يمشي بين الناس.

قالت السيدة عائشة (رضي الله عنها) في وصفه ﷺ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»⁽²⁾، وقال حضرة السلطان الخليفة محمد المحمد الكسنزان (قدست أسرارهِ المباركة): «كان قرآنًا ناطقًا يمشي بين الناس». فالسُّنَّةُ المُحمّدية، بوصفها حقاً وامتداداً للقرآن، هي الأخرى حيّةٌ مُتحرّكةٌ في الزّمن، لا حبيسة كتب التراث.

لا تكفي نصوص السنة لتكون هي السُّنَّة، كما لا يكفي المصحف ليكون فيه الحياة القرآنية. فكما أنَّ القرآن لا يُقرأ على لفظةٍ إلا من

1 - الطبراني، المعجم الكبير، مصدر سابق رقم الحديث [4980]، ج5 ص169.

2 - الامام احمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م، رقم الحديث [24601]، ج41 ص148.

مُحَمَّدٌ نور بابه عَلَيَّ

صَدَّقَهُ قَلْباً وَسَعَى بِهِ سَعِيّاً، فَكَذَلِكَ السُّنَّةُ لَا تُفْهَمُ إِلَّا مَنْ وَارِثٍ عَاشَ
حَالَهَا، وَكَانَ فِي زَمَنِهِ وَجْهًا مِنْ وَجُوهِهَا.

حين ننظر في الواقع نجد أنه في كل زمان، هناك من يتحدث باسم
السنة. منهم من يقف عند ظاهر الحديث، ومنهم من يغوص في
جوهره. ولكن وحده "الشيخ الوارث"، الذي يحمل سرّ الولاية
المحمدية، هو القادر على أن يجعل السُّنَّةَ تتبص، تتحرك، وتخطب
الواقع الجديد بلسان محمدي لا يشيخ.

إن الحديث ليس مجرد كلمات، بل هو حدث يلامس الواقع بالفاعل
والمنفعل، بالمؤثر والمتأثر.

فإذا اقتصر البعض على فهم: ان الحديث مجرد كلمات تروى،
فليعلم أن ذلك إن وُضع في يدٍ لا تعرف من النبوة إلا قالبها، صار
سلاحاً يُجرح به الناس. أما إذا حمّله من تذوق سرّ النبي ﷺ، وعاش في
قلبه، صار الحديث شفاءً، ورحمةً، ومفتاحاً للأسرار.

السُّنَّةُ الناطقة لا تعني تأويلاً منحرفاً أو تعسفاً في المعنى، بل تعني
إحياء الأصل، لا من خلال التكرار، بل من خلال التجلي. وهي بهذا
المفهوم، ليست مُتاحة لكل قارئ، بل لكل سالك أدرك أن السُّنَّةَ
طريق، لا مجرد وثيقة.

في الحديث الشريف: ﴿إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِثْرَتِي
أَهْلَ بَيْتِي، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ﴾⁽¹⁾ هذا النص

1 - الطبراني، المعجم الكبير، مصدر سابق رقم الحديث [4980]، ج5 ص169.

ليس مجرد توصية، بل هو بيان عن طبيعة الاستمرار النبوي.
فكما أن القرآن باقٍ، فإن بقاء السُّنة لا تتم إلا بالعترة، والعترة هنا
ليست النسب فقط، بل النَّفس، والورثة، وسلسلة من المشايخ
الذين يحملون هذا السرّ.

كل شيخ موصول بالعترة الحقّة، هو حامل للسُّنة الناطقة، ليس
لأنه راوٍ للأحاديث، بل لأنه موضع إشراقها.
فهو لا يقف عند قراءة الحديث، بل يُحييه. ولا يكتفي بحفظه، بل
يكشف باطنه، ويوجّه حركته في واقع جديد، بما لا يُخالف روحه، بل بما
يُجددها.

السنة الناطقة ليست قائمة قوانين، بل هي ذات النبي ﷺ وقد
سرت في غيره. هي النور الذي إن دخل في الشيخ، صار الشيخ صورة
من محمد ﷺ في قلب الزمان.

الشيخ العارف بالله لا يقلّد السنة، بل يُلبسها ثوب العصر، دون أن
يبدل جوهرها. تتكلم هي بلسانه، لأن بينه وبينها نسباً نورانياً، لا صلة
وظيفية.

هذا هو المقصود بقولنا: العارف الحقيقي لا يقتبس السُّنة، بل
تتكلم السُّنة من خلاله. فهو السُّنة في وجهها الجديد، في موقفها
المُعاش، في استجابتها للزمن المتغير.

في الطريقة الكسنزانية، تُفهم السُّنة بوصفها حياة تُعاش لا مذهباً يُتَّبَع.
والتكّيّة ليست مجرد مركز عبادة، بل هي استحضار حيٍّ للمدينة
المحمدية. فيها الشيخ، أي باب السنة، وفيها الذكر، أي النفس الذي كان
يتردد في حضرة النبي ﷺ، وفيها الصحبة، أي العلاقة التي كان بينها
النبي مع أصحابه، لا بوصفهم تلاميذ، بل بوصفهم قلوباً تستحق القرب.

مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

كل تَكْيَّة صوفية صادقة هي استمرارٌ للبيت النبوي، لبيت مولانا فاطمة وجدنا الإمام علي (عليهما السلام)، لبيت الله تعالى، وهي استمرار لسيرة السُّنَّة المجسدة عملياً. ففيها الصدق يُرى، والرحمة تُلمس، والتواضع يُعاش، تلك هي السُّنَّة، لا فقط الحديث عنها.

في علمنا، لا يُحسن حمل السُّنَّة من لم يكن له نصيب من الولاية.

نحن نقول: السُّنَّة كائن حي ناطق يمشي بين الناس، نعم.

السُّنَّة التي نعيشها هي لسان سيدنا محمد ﷺ، قلب سيدنا محمد ﷺ، ونَفْس سيدنا محمد ﷺ، وسِرِّ سيدنا محمد ﷺ ... لا كلامه فقط.

والخلاصة: السنة لا تمشي في الشوارع، بل تمشي في القلوب.

فمن أرادها، فليُنظر أين يسكن سرُّ النبي ﷺ الآن، من هو وجهه في هذا الزمان، من هو وارث نَفْسِه، من إذا تكلم، سمعت نبذة سيدنا محمد ﷺ منه، وإذا تصرّف، رأيت ظلّه، وإذا دعاك، شعرت أن الدعوة جاءت من وراء الزمان.

ذاك هو الشيخ، الحيّ، الباب.

هو السُّنَّة الناطقة..

كانه النبي... إن لم يكن بالجسم، فبالأثر.

فإن حضرته، فقد حضرت السُّنَّة، وإن غبت عنه، فقد فقدت الأثر.

فمن أراد السُّنَّة حقاً، فليدخل من الباب.

ومن أراد الباب، فليطلب الشيخ.

ومن عرف الشيخ، عرف النور.

ومن دخل النور، فقد دخل المدينة.

ومن دخل المدينة، أدرك السُّنَّة، لا كما تُروى، بل كما تُرى.



إذا كانت السُّنة المُحمّدية، كما يَنتَم، نوراً يسري عبر الباب، ولا تُدرك حقيقتها إلا بالصّحبة النورانية والوراثة الروحية، فلماذا اهتم المسلمون على مر العصور بتدوين الأحاديث والسنن وجمعها في الكتب؟

ثمّ، إذا كانت السنة لا تُدرك بالنص وحده بل بالحضور النوراني، ألا يدل هذا على أن النص محفوظ ليكون هو الأصل في الاقتداء؟

الجواب: هذا السؤال يُغفل حقيقة العلاقة بين النص والنور، بين الحبر والسّرّ، بين ظاهر السُّنة وجوهرها.

إن تدوين الأحاديث وجمع السنن كان حفظاً للقلب الذي جرى فيه النور، كما يُحفظ الإناء ليرى به الماء، لكنه لا يكون الماء نفسه.

النصوص حفظت الصورة، لكن الروح لا تحفظها الصحائف، بل يحفظها الرجال، يحفظها الورثة، يحفظها مَنْ حملوا مقام الباب وساروا على خطّ النور.

إن الأمة بحاجة إلى الحبر لتتذكر الطريق، لكنها لا تبلغ الغاية بمجرد قراءة اللافتات، بل لا بد لها من الدخول من الباب.

السنة المكتوبة علامة، لكنها ليست المقصد. والمقصد هو النور.

الحبر وحده لا يضيء الطريق، بل الشيخ الحيّ الذي يترجم السُّنة بنوره، ويُنزلها في قلوب المريدين بمعناها الحيّ المتجدّد لهذا كان حفظ النص مهماً، لكنه لم يكن أبداً ليغني عن حضور النور.

فمن اكتفى بالنص حُرّم الذوق، ومن جمع بين النص والنور أدرك السُّنة كما شاءها الله: ظاهراً محفوظاً، وباطناً مشهوداً.

الكتب صيانة، والشيخ حياة، والطريق لا يتم إلا بهما جميعاً، لكن البداية والنهاية في النور، لأنه الأصل الذي من أجله كانت السنن، وبه تبقى حيّة إلى يوم الدين.

خُلَاصَةُ الْفَصْلِ الرَّابِعِ

الإعلان عن مقام الباب الروحي

حديث ﴿أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى﴾ ليس بياناً لقربة سياسية أو عائلية، بل إعلان عن مقام روحي خاص، يضع الإمام علي في موضع الباب الروحي للنبوة، كما كان هارون لبني إسرائيل.

الاستثناء يكشف مقام الولاية لا النبوة

الاستثناء في الحديث "إلا أنه لا نبي بعدي" يؤكد أن المقام المشار إليه هو مقام الولاية، لا النبوة، وهذا ما يشكّل أحد الأصول الكبرى في فهم العلاقة بين النبوة والولاية.

سلسلة الولاية النورية في التصوف

الطرق الصوفية تقرّ الحديث بوصفه إعلاناً عن سلسلة الولاية المتصلة، التي تبدأ من الإمام علي عليه السلام وتمتد في أولياء الله تعالى، لا على أساس النسب، بل على أساس النور والمعرفة.

الراية رمز للمحبة والاصطفاء الروحي

حديث الراية في خيبر، يبرز علماً كمظهر للمحبة المتبادلة بين العبد والرب، وهو شرط التربية الصوفية.

الفتح تجلّ لمحبة الله ويقين الولي

الفتح في خيبر ليس مجرد انتصار عسكري، بل تجلّ لمقام علي الذي يفتح القلوب بالمحبة واليقين، كما يفتح الحصون بالقوة والشجاعة.

الراية تسليم سر القيادة الباطنية

إعطاء الراية هو تسليم لسر القيادة الروحية، فالراية هنا رمز صوفي

للتمكن الباطني، لا مجرد لواء حربي، وبه تنتقل الأسرار من النبي إلى الباب.

حديث الوحدة النورية بين النبي ﷺ وعلي عليه السلام

حديث "علي مني وأنا من علي" يشير إلى وحدة النور، ويدلّ على أن العلاقة بين النبي والإمام ليست مجرد صحبة، بل تداخل وجودي في المقام والسرّ.

الوراثة النورية سر امتداد الولاية

هذا الحديث يؤسس لمبدأ الوراثة النورية، حيث كل ولي حقيقي هو "من النبي"، كما أن النبي "من علي" من جهة استمرار النور في الأمة.

علي مرآة القرآن وذوق فهمه الباطني

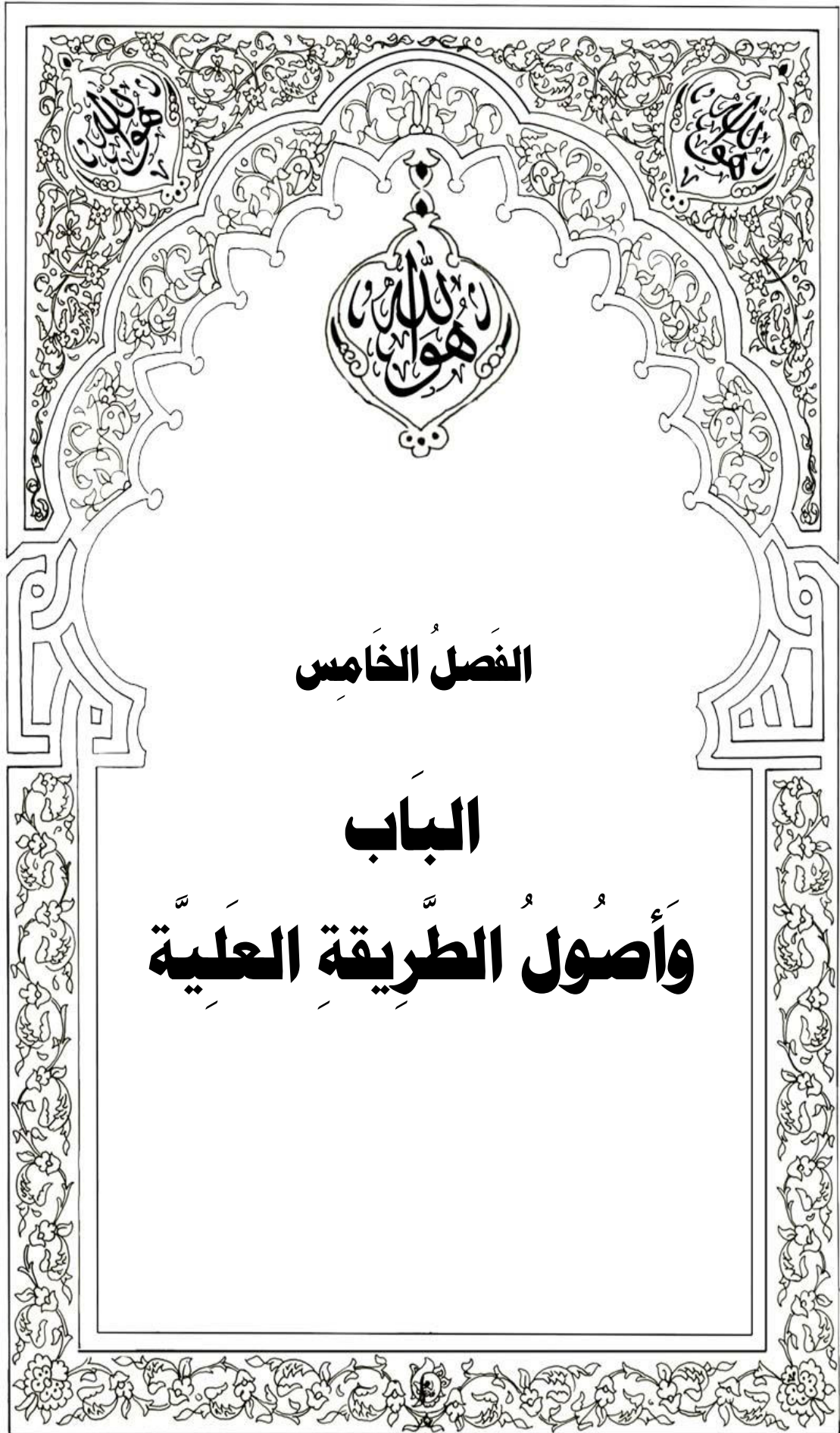
في الحديث "علي مع القرآن والقرآن مع علي"، بيان أن الإمام علي ليس مجرد حامل للعلم، بل مرآة حية تنعكس فيها أنوار القرآن، ومفتاح لفهمه الذوقي.

الباب مدخل لفهم القرآن عبر الأولياء

لا يُفهم القرآن الفهم الكامل إلا من خلال الباب الذي جعله الله متصلاً به، ومن خلال الإمام علي بدأ هذا المقام يتجلى، ثم انتقل عبر المشايخ الربانيين.

الإمام علي أصل الباب المتجدد في الكسنزانية

بحسب الرؤية الكسنزانية، الإمام علي هو أول باب ناطق، ومنه امتد النور إلى كل شيخ كامل يحمل الراية في زمانه، فهو حلقة الاتصال، ومقام الولاية المستمر.



مَنْبَعُ أَصُولِ الطُّرُق

حين نعود إلى منبع الطريق، إلى تلك البدايات النقية التي لم تتشكل فيها بعد المدارس الصوفية بصورتها المعروفة، ولم تتمايز الأوراد والشعائر، ولم تتفرع الأسماء والطرق، لا نجد الطريقة عند الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام (الطريقة العليّة) كما عُرفت الطرق لاحقاً، فلم يكن مؤسساً لنظامٍ مغلقٍ يُقيد السالكين بأوراد مخصوصة، بل كان مرشداً إلى الله بلا حجاب، ودليلاً إلى الحقيقة بنقاء النية، وصفاء السلوك، وبساطة المسير المفتوح على نور الوحي.

إن المقارنة بين الأصل الذي مثله الإمام علي عليه السلام في التربية الروحية، وبين ما آلت إليه الطرق الصوفية من تراكم معرفي وتنظيم مؤسسي، هي مقارنة في غير محلها من حيث السياق التاريخي ووظيفة المرحلة. فالأصل وقتئذ كان الفيض الأول، حيث القلوب مفتوحة على نور النبوة، والحقائق قريبة لا يحجبها التراكم، ولهذا جاءت الطريقة فيه عامّة، شاملة، بسيطة، تخاطب الفطرة بلا تعقيد.

أما الطرق الصوفية لاحقاً، فقد وجدت نفسها أمام تحولات كبرى في الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي، مما استدعى تطوير أساليب التربية، ونحت مدارس ومناهج محددة، شأنها شأن بقية العلوم، كعلم الفقه الذي بُني على النصوص، وعلم الكلام الذي تطوّر بمواجهة الشبهات، والفلسفة التي نمت بمقتضى التوسع العقلي. هكذا أيضاً تطورت الطرق الصوفية، لا خروجاً عن الأصل، بل تجسيداً له في صورة أكثر تركيباً، تواكب حاجات العصور.

بالتالي، فلا ينبغي تلمس المطابقة بين الصورة الحاضرة للطريقة وبين ما كان عليه الأصل في الماضي، مثلما لا ينبغي قياس الأغصان

على الجذع، لأن الأصل له طبيعته والفروع لها وظيفتها.
إن التشبيه الذي نختاره هنا للتوضيح هو التشبيه بالشجرة: فالجذر هو رمز المدينة النبوية، والجذع هو رمز الإمام علي عليه السلام، الباب الذي تمر منه كل المعارف والأنوار، أما الفروع فهي الطرق الصوفية التي تفرعت عبر العصور.

كل فرع -أو أكثر- يعبر عن بيئته وزمانه، لكن لا فرع إلا وله وصل في ذلك الأصل النوراني.

هنا تكمن أهمية الرجوع إلى الإمام علي عليه السلام لا بوصفه شيخ طريقة تقليدية محددة الآداب والأوراد، بل بوصفه المربي الأول للأرواح، والمرآة الصافية لوحي النبوة.

بعبارة أخرى، ليس المطلوب أن نبحث عن تماثل شكلي بين الطرق الصوفية المعاصرة والطريقة العلية، بل أن نعيد النظر في أصالة الطريقة العلية كما كانت في حقيقتها الأولى، منفتحة وبسيطة وعميقة في آن. فإذا فعلنا، سنكتشف أن المجاهدات، والخلوات، والبيعة، والذكر، والولاية، والفيض، لم تكن غائبة عن حياة الإمام علي عليه السلام، بل كانت حاضرة بجوهرها، وإن لم تُعرف آنذاك بهذه التسميات. كانت تمارس بروحها النقية، قبل أن تُصاغ لاحقاً في قوالب معرفية ومصطلحات مدرسية.

وهنا، سنحاول أن نسلط الضوء على تلك الأصول التربوية والروحية التي أجمع المسلمون، بمختلف مذاهبهم، على أن الإمام علي عليه السلام كان فيها أعمق تجربة، وأوسع معرفة، وأقوى ممارسة من سائر الصحابة، حتى عدّوه باباً من أبواب العلم، وسابقاً في الزهد، ورائداً في الجهاد، ومثالاً في الذكر والخلوة والتقوى. صحيح أن تلك الأصول، وإن لم تكن مُمأسسة آنذاك، إلا أنها كانت حاضرة بقوة في حياته، مشكّلة

مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

لبذور ما ستعرفه الأجيال اللاحقة من مدارس التصوف وسلوك الطريق إلى الله.

وفيما يلي عدد من النصوص المروية عن الإمام علي عليه السلام والتي تتبثق منها مجموعة من الأصول الصوفية التي تُشكّل البنية الروحية للطريقة العليّة، وهو:

روي أن الإمام علي عليه السلام قال: «يا رسول الله، دلني على أقرب الطرق إلى الله تعالى وأسهلها على عباده وأفضلها عند الله. فقال رسول الله ﷺ: ﴿يا علي، عليك بمداومة ذكر الله تعالى في الخلوة﴾.

فقال علي عليه السلام: كيف أذكر يا رسول الله؟ قال ﷺ: ﴿غمض عينيك واسمع مني ثلاث مرات﴾، فقال ﷺ: ﴿لا إله إلا الله ثلاث مرات﴾، وعلي عليه السلام يسمع منه، ثم قال علي عليه السلام: ﴿لا إله إلا الله ثلاث مرات والنبي ﷺ يسمع﴾⁽¹⁾. روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «إن الله تعالى جعل الذكر جلاءً للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة.

وما برح لله عزّت آلاؤه في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات، عبادة ناجاهم في فكرهم، وكلمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار، واقتبسوا من مصابيح الهداية في قلوبهم، فلم تفتقر

1 - محمد بن أحمد الحنفي - المعروف والده بعقيلة، الفوائد الجلية في مسلسلات ابن عقيلة، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد رضا، الناشر: البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2000م، ص 87.

لهم ثغرة، ولم تخف لهم بصيرة، ولم تزل لهم قدم، ولم تضعف لهم قوة. أولئك هم أولياء الله، الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»⁽¹⁾.

تتضمن هذا النصوص مجموعة من الأصول الأساسية التي تقوم عليها الطريقة العليّة، وفي الفقرات اللاحقة تحليل لها يتناسب مع سياق الكتاب.



1 - نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي، تحقيق صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، خطبة رقم [222]، ص 332.

الأصل الأول: تَلْقِينُ الذِّكْرِ.. أَقْرَبُ الطَّرْقِ إِلَى اللَّهِ

روي أن الإمام علي عليه السلام قال: «يا رسول الله، دلني على أقرب الطرق إلى الله تعالى وأسهلها على عباده وأفضلها عند الله، فقال رسول الله ﷺ: «يا علي، عليك بمداومة ذكر الله تعالى في الخلوة»، فقال علي عليه السلام: كيف أذكر يا رسول الله؟ قال ﷺ: «غمض عينيك واسمع مني ثلاث مرات»، فقال ﷺ: «لا إله إلا الله ثلاث مرات»، وعلي عليه السلام يسمع منه، ثم قال علي، كرم الله وجهه: «لا إله إلا الله ثلاث مرات والنبي ﷺ يسمع»⁽¹⁾.

إن من أهم ما تتميز به الطرق الصوفية اعتمادها على تلقين الذكر، لأن الذكر في حقيقته سرٌّ موصول، لا يُنال بمجرد التردد اللساني أو الحفظ الذهني، بل يُؤخذ بالعهد، ويُتلقى من قلبٍ حيٍّ إلى قلبٍ حيٍّ، بإذن وفتح. وهذا الأثر الشريف الذي نعرضه هنا، يبيّن أصل هذا التلقين في السنة المحمدية، ويُظهر كيف تلقى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذكر، بل كيف تلقنه من النبي ﷺ مباشرة، ليكون بذلك البداية المباركة لهذا النهج التربوي الذي حفظ سرَّ الطريق، وسرَّيان نور الذكر في شجرة الطريقة إلى يوم الدين.

إن من أصفى المشاهد في الطريقة، هو هذا المشهد في تلقين الذكر

1 - محمد بن أحمد الحنفي - المعروف والده بعقيلة، الفوائد الجلية في مسلسلات ابن عقيلة، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد رضا، الناشر: البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2000م، ص 87.

من رسول الله ﷺ للإمام علي عليه السلام، وهو المشهد الذي أسس لمسار الطريقة، ووضع لبنة العلم الروحي الذي سيتفرع منه ما عرف بعد بحلقات الذكر، وختمات الأوراد، وتلاوات الأحزاب.

حين قال الإمام علي عليه السلام يا رسول الله، دلني على أقرب الطرق إلى الله تعالى وأسهلها على عباده وأفضلها عند الله، لم يكن سؤاله سؤال من يجهل الطريق، بل سؤال من سبق أن عرف الطرق، وعلم أبوابها، وذاق شيئاً من أسرارها، لكنه يسأل عن الأقرب، عن الأسرع وصلاً، عن المفتاح الجامع.

إن مجرد طلبه هذا يدل على أنه كان عارفاً بخيارات السلوك، ناظراً في مناهج السير، مستبصراً بوجود مراتب القرب، لكنه أراد ما هو أقرب الطرق وأصفها، فكان بهذا السؤال يُشير إلى افتتاح هذا العلم الروحي الذي سيعلن عنه النور المحمدي، وتنتشر أنواره لاحقاً في الأمة عبر السلسلة. بهذا السؤال وضع الإمام علي عليه السلام الأساس النظري والعملية لعلم الطريق.

لم يكن الجواب النبوي المبارك إلا بياناً لأصل الطريق: يا علي، عليك بمداومة ذكر الله تعالى في الخلوة.

لم يكلفه بكثرة الأعمال الظاهرة ولا بمشقة المجاهدات البدنية، بل دلّه على لبّ الطريق، على المفتاح: الذكر، ولكن الذكر الذي يُلقن، الذكر الذي يُؤخذ بإذن، الذكر الذي يُفتح به القلب على الحضرة.

ثم جاء التوجيه على أدب تلقين الذكر: "غمّض عينيك واسمع مني ثلاث مرات، وقال رسول الله ﷺ: لا إله إلا الله ثلاث مرات وعلي يسمع، ثم قال علي: لا إله إلا الله ثلاث مرات والنبى ﷺ يسمع". هنا نرى تلقين السرّ، لا تلقين لفظ فقط. هذا ليس تعليم كلمة، بل تسليم نور، عقد عهد، إيداع سرّ. بهذا التلقين صار الذكر في قلب عليّ

مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

عليه السلام حيًّا، وسرت منه إلى القلوب عبر السلسلة النورانية التي بلغت إلى الأولياء والعارفين، وإلى الشيخ الحاضر في كل زمان.

في الطريقة الكسنزانية، يُفهم هذا المشهد على أنه الأصل الذي ينبني عليه التلقين الصوفي وهو: أنَّ الذكر لا يؤخذ من الكتب، ولا يُنال بالقراءة المجردة، بل يُتلقى من شيخ وارث، متحقق بالنور، موصول بالسلسلة، كما تلقى عليٌّ عن رسول الله ﷺ. فالذكر سرٌّ، والسر لا يؤخذ إلا بإذن، ولا يُمنح إلا لمن تأهل له.

إن التمعن في هذا الأثر الشريف يكشف أنه تضمّن إشارات عميقة إلى مرجعيات في السلوك الروحي، يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

تلقين الذكر: حيث ورد فيه السماع والترداد، وهو عين ما يجري عليه أهل الطرق الصوفية جميعًا باختلاف مشاربهم ومسالكهم، إذ لا ذكر حيٍّ إلا إذا كان مأذونًا ومتلقًى من قلبٍ إلى قلبٍ.

الإشارة إلى تنوع الطرق: فالحديث دلٌّ على وجود طرق عديدة إلى الله تعالى، وأن منها ما هو أقرب وأيسر للسالك، بما يناسب حاله واستعداده.

تعظيم ذكر لا إله إلا الله: فقد بيّن أن هذا الذكر هو أصل الأذكار جميعًا، وأقربها إلى الله تعالى، وهو كلمة التوحيد التي بها يُفتح الباب وتُرفع الحُجب.

تحديد العدد: إذ وردت الإجازة بعدد مخصوص في تلك اللحظة (ثلاث مرات)، مما يدل على أن الذكر لا يؤخذ اعتباطًا، بل بضبط وعدد يناسب حال الذاكر وزمانه.

اقتران أقرب الطرق بالمداومة: فليس المقصود الذكر اللحظي، بل الذكر الدائم المستمر، الذي تصفو به القلوب وتفتح به أبواب الحقائق.

اقتران أقرب الطرق بتغميض العينين: وهي إشارة لطيفة إلى الانقطاع عن شواغل الحس، وفتح عيني القلب، بما سيُعرف لاحقاً في علم السلوك باسم الرابطة القلبية.

اقتران أقرب الطرق بالخلوة: أي أن الذكر يكون في العزلة، حين ينفرد الذاكر بربه، متحرراً من علائق الدنيا ومشاغلها، فيصفو حضوره بين يدي الله تعالى.

وهكذا يتضح أن الإمام علي عليه السلام في طلبه وإجابته وتلقيه كان هو المبتدأ للعلم الروحي، والباب الذي خرج منه النور إلى الأمة، والسرّ الذي استمر سريانه في الطرق الصوفية، حتى بلغ إلى الشيخ الحاضر، باب النور في زمانه، ودليل القلوب إلى الله في عصره. ومن أراد الدخول إلى المدينة، فعليه أن يطلب الباب، ومن أراد الباب فعليه أن يطلب الشيخ، ومن عرف الشيخ عرف الذكر الحي، ومن دخل الذكر أدرك النور، ومن دخل النور فقد دخل المدينة.



قد يقول البعض: إذا كان تلقين الذكر، كما يظهر في هذا الأثر، هو سرّ موصول ونور متسلسل، فكيف نفهم أن هذا التلقين ضرورة لازمة، مع أن الله تعالى فتح أبواب ذكره لكل عباده، وأمر بذكره على كل حال؟ ألا يكفي إخلاص النية وصدق القلب ليستنير الذاكر بنور الذكر دون الحاجة إلى شيخ أو باب أو سلسلة روحية؟ وهل في اشتراط التلقين ما يتعارض مع عمومية الخطاب القرآني للذكر؟

الجواب:

هذا الاستشكال بالغ العمق، لأنه يلامس قلب العلاقة بين ذكر الله الذي هو مفتوح لكل العباد، وبين الذكر الخاص المأذون الذي به يُفتح باب النور على الحقيقة. نعم، الله تعالى أمر بذكره في كتابه لكل مؤمن،

مُحَمَّد نور بابه عَلِيٍّ

ودعا عباده إلى أن يذكروه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، وهذا هو الذكر العام الذي يشترك فيه المؤمنون جميعاً، بقدر نياتهم وصدق قلوبهم. لكن التلقين الذي تحدث عنه الإمام عليه السلام مع حضرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في ذلك الموقف لم يكن مجرد تلقين لفظ مخصوص، بل تلقين السرّ على الخصوص، وهو ما يُحوّل الذكر من تردد إلى ورود، ومن صوت إلى فتح، ومن لفظ إلى حال.

الذكر العام يرفع الذكرى، أما الذكر الخاص المأذون، فهو الذي يرفع الحُجب.

الذكر العام يُقال، أما الذكر الخاص فيُعاش، يُورث، يُسرى، يُودع كالنور في قلب يضيء.

إن اشتراط التلقين لا يناقض عمومية الذكر، بل يُكملها، ويميز بين الذكر الذي يُبقيك على باب الحضرة، والذكر الذي يُدخلك إليها. فالشيخ المأذون هو حامل المفتاح، لا لأن الله منع النور عن عباده، بل لأن الله جعل لكل باب مفتاحاً، ولكل مقام أذنه، ولكل فتح أهله. فمن أراد الدخول على الحقيقة، طلب الباب، ومن طلب الباب وجد الشيخ، ومن وجد الشيخ تلقى الذكر كما تلقاه عليٌّ من رسول الله صلى الله عليه وآله، في سلسلة النور التي لم تنقطع ولن تنقطع إلى يوم الدين.



لكن، ماذا لو شكك البعض بهذا الأثر أصلاً، فقل: إن هذا الأثر لم يثبت سنداً أو لم يكن صحيحاً من جهة الرواية؟

ألا يضع ذلك من أساس التلقين الصوفي، ويضعف الاستدلال به كأصل من أصول الطريق وأقرب الطرق إلى الله تعالى؟

الجواب:

إن صحة الأثر سنداً تزيد قوة، لكنها ليست وحدها ميزان الحقيقة

الروحانية في هذا الباب. لأن التلقين الصوفي في جوهره ليس قائماً على رواية واحدة، بل هو مستند إلى أصل عام أرساه القرآن الكريم والسنة المتواترة؛ ففي التنزيل الحكيم ما يزيد على مائتان ونيف من الايات الكريمة التي تحث على الذكر والتسبيح والحمد والاستغفار والصلوات والدعاء، وأما في مصادر الصحاح فيصعب حصر عددها وبخاصة المشتملة على ذكر (لا إله الا الله) بعدد معين ومنها على سبيل المثال: «عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: ﴿من قال: لا إله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة؛ كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا⁽¹⁾ من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك﴾⁽²⁾.
إن ذكر الله هو الطريق، وصحبة أهل الذكر هي السبيل، وتلقي النور لا يكون إلا من قلب إلى قلب بإذن متصل.

ثم إن هذا المشهد، وإن لم يُثبت كسند حديثي، فقد ثبتته التجربة الروحية الحية للأمة عبر القرون: تلقين الذكر كان وما زال أصل التربية في الطرق الصوفية، به تحيا القلوب، وتستنير الأرواح، وتُفتح أبواب الحضرة فالحقائق الروحية تُعرف بثمرتها، وتُشهد بآثارها، وما قد يعجز عنه السند يكمله الحال، وما يغيب عن الرواية يقرّه الذوق، وما لم يُجمع عليه المحدثون، أجمعت عليه قلوب العارفين حين ذاقت بركته، وعاينت نوره، ورأت أثره في السير إلى الله تعالى.

1 - حرزا: حفظا. (انظر: النهاية في غريب الحديث، مادة: حرز).

2 - صحيح البخاري، دار التأصيل - القاهرة، الطبعة: الأولى، 1433 هـ - 2012م، حديث رقم [3299]، ج4 ص330.

الأصل الثاني: الذِّكْرُ جَلَاءُ الْقُلُوبِ وَمِفْتَاحُ الْإِنْقِيَادِ

"إن الله تعالى جعل الذكر جلاءً للقلوب، تسمع به بعد
الوقرة، وتبصر به بعد العشوة، وتتقاد به بعد المعاندة "

هذه العبارة تكشف جوهرًا روحياً عميقاً لا يتأتى وصفه إلا لمن ذاقه
وتشرب أنواره؛ إذ كيف يصف الإنسان تأثير الذكر في تليين القلب
وفتح الحواس الباطنة ما لم يمارسه ويعانق أسرارها؟ إن الإمام لم
يتحدث عن نظرية بل عن تجربة، ولم يقدم تعليماً ذهنياً بل شهادة
قلب عاش حضور الذكر حتى صار الذكر ذاته صفةً له.
التجربة العلوية في الذكر:

لم يكن الإمام علي يردد الأسماء ترديداً مجرداً، بل كان يغمس قلبه
في أنوار الاسم حتى تتم له الكشف في حواسه الباطنة.
هذه المعاشية هي التي منحتهُ سلطة الحديث عن دقائق التأثير،
تماماً كما يصف الطبيب أثر الدواء من واقع الاختبار.
ولولا هذه الممارسة المتواصلة لما خرجت هذه الحكمة المتفردة
التي لم ترد عن أحد من الصحابة بهذا العمق والتفصيل؛ كيف لا
والإمام عليه السلام باب المدينة، والمربي الأول، والمختص بإرث باطني يفتح
لمن بعده ما إليه وصل.

من الباب إلى الطريق الصوفي:

حين تسلّم الإمام سرّ الذكر وفتح به قلبه، أسس أصلاً ستجري به
الطرق الصوفية في العصور اللاحقة. صار الذكر عندهم مركز الحركة
التربوية: يُقاس أثره بجلاء القلب لا بعدد الألفاظ، وبانقياد الباطن لا

بحركة اللسان. هكذا انتقل السر العلوي عبر سلاسل المشايخ
المريّين، يفيض من قلب إلى قلب، حتى غدا الذكر نهجاً أصيلاً لبناء
الإنسان الباطن في كل زاوية صوفية.

إذن: يقوم أصل الذكر العميق على تجربة علوية فريدة مارسها
الإمام علي عليه السلام وتكشّفت له خصائصها؛ فمن خلالها عِلِمَ أن القلوب
تُصَقَّل، وأن الحواس الباطنة تُبَعَث، وأن العناد يلين بين يدي الله.
ولما كان هو الباب المعين لورثة العلم المحمدي، انفرد بالكشف عن
هذا السر وورثته للأجيال، فصار الذكر منصّة دائمة لتجديد القلب وفتح
الطريق لمن يلتمس النور.



الأصل الثالث: المُنَاجَاةُ وَالكَلامُ فِي ذَاتِ الْعُقُولِ

" وما برح لله عزّت آلاؤه في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان
الفترات، عباد ناجاهم في فكرهم، وكلمهم في ذات
عقولهم.. "

في هذا القول البديع، يكشف الإمام علي عليه السلام عن أصلٍ روحي عميق
من أصول السلوك الإلهي: إن الإنسان لا يسمع الله بأذنه، ولا يراه
بعينه، ولكن يسمعه إذا ناجاه بفكره، ويكلّمه إذا صفا بعقله.

هنا لا نتحدث عن وحي النبوة، بل عن إشراقة الولاية، تلك التي
تجلّت في مرآة القلوب التي طهرت، وتهيّأت للتلقّي من الداخل.
ماذا يعني أن يُناجَى العبد في فكره؟

ليست المُنَاجَاة هنا خواطر عابرة، بل هي إشارات عميقة، تشبه
همس الروح حين تنهياً للفيض. والفكر الذي يُناجى، هو فكر انقطع
عن تشتته، فاستقر في محضر الغيب، فصار كالمرآة تلتقط شعاع النور
الرباني. عندها، لا تعود الأفكار مجرد تحليل ذهني، بل تتحول إلى أرضية
للكلام الإلهي، حيث تُزرع فيها كلمات غير منطوقة، لكنها مفهومة، غير
مسموعة، لكنها مستجابة.

وكلمهم في ذات عقولهم... كيف؟

الكلام في ذات العقل هو انتقال الحقيقة إلى الإنسان دون وساطة لفظ،
كما لو أن المعرفة تنزل على القلب دفعة واحدة. وهو من مقامات الفتح
الذوقي الذي لا يحصل بالدرس فقط، بل بالمجاهدة والتّهذيب. وقد عبر
الإمام عليه السلام عن ذلك بكلمات دقيقة، تشير إلى أن الإدراك العميق لا يكون
في ظاهر العقل بل في ذاته، أي في جوهره وتكوينه الروحي، حيث تصبح
النفس قابلة لأن تكون موضعاً للكلام الرباني.

لماذا لم نسمع هذا الوصف من غير الإمام؟

لأن الإمام عليّ عليه السلام هو باب المدينة، هو أول السالكين بحق، والمرّبي الذي بلغ الكمال فأصبح دليلاً لمن بعده. فهو لا يتحدث عن تصورات، بل عن تجارب عاشها، ومراتب ذاقها. ومن كان كذلك، فهو أصدق من يشهد، وأحق من يتبع. ولهذا انفرد بكشف هذه المرتبة، وبوصفها وصف العارف لا الراوي.

تأصيل صوفي سابق لزمه:

لقد سبقت هذه العبارة من الإمام علي جميع ما سيقوله الصوفية في قرون لاحقة، عن الحديث الإلهي في السرّ، والكلام في الخفاء، والفيض في القلب. فهي أصل نبويّ باطنيّ، غرسه الإمام لمن سيأتي بعده من السالكين، الذين بنوا طرقهم على أن السمع الحقيقي هو ما كان في الفكر، وأن النور الأصدق هو ما أشرق في ذات العقل. والخلاصة:

بهذا النص، يُرسي الإمام علي عليه السلام أصلاً ثانياً من أصول الطريق في زمانه وهو: أن الفكر الصافي موضع مناجاة، وأن العقل المنور مجال مكالمة، وأن السير إلى الله لا يكون فقط في الجوارح، بل في أعماق الفكر وطبقات العقل. ولا عجب في ذلك فالثقل الأول، القرآن الكريم يشير إلى هذين الأصلين في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ --﴾ (1). إنها تربية باطنية، لا يفتح بابها إلا من بلغ، ولا يدلّ عليها إلا من كلّمته الحقيقة كما كلّمت أوليائها في الخفاء.

الأصلُ الرَّابِع: نُورُ اليَقَظَةِ فِي الأَسْمَاعِ والأَبْصَارِ

"فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار.."

يُؤَصِّلُ الإمام علي عليه السلام هنا مبدأً تربوياً عميقاً في سلوك أهل الله تعالى: أن السير إلى الله لا يكتمل بمجرد الذكر ولا بمجرد الفكر، بل لا بد من يقظةٍ روحية تُشعل في الإنسان أدواته الباطنية، وتعيد تشييط الحواس التي نامت أو اعتادت النظر دون بصيرة، والسماع دون وعي. "استصبحوا.." أي أوقدوا نوراً داخلياً

الفعل (استصبحوا) يوحي بأن النور لم يأت من الخارج، بل طُلب من الداخل، كما يُوقد السراج من مادة قابلة للاشتعال. فالقلب هنا هو المصباح، واليقظة هي الفتيلة، والسلوك هو الزيت. ومن اجتمعت له هذه الثلاثة، أضاء سمعه وبصره بنور رباني، فلم يعد ينظر كما ينظر الناس، ولا يسمع كما يسمعون، بل يتلقى من خلال حواسه معاني لا يلتقطها الغافلون.

ما هي يقظة السمع والبصر؟

هي لحظة الانتباه الباطني التي تنتقل فيها الحواس من كونها أدوات مادية إلى منافذ للفيض. السمع حين يُنقى، لا يسمع فقط الأصوات، بل يلتقط الإشارات، ويتذوق المعاني الخفية فيما يُقال. والبصر حين يُطهر، لا يرى المظاهر، بل يحدّق في الآيات، ويلتقط الحكمة من أبسط مشهد. إنها درجة من الحضور لا تُكتسب بالعادة، بل تُنال بالمجاهدة والصحبة والإخلاص.

كيف أدرك الإمام هذا الأصل؟

كما في الأصول السابقة، فإن الإمام علي عليه السلام لم يكن يعبر عن نظريات تعليمية، بل عن مراتب سلوكية. لقد ذاق بنفسه يقظة الحواس، وذاق كيف تتحول الجوارح إلى مرايا تتلقى النور، فكان بصره شاهداً، وسمعه موصولاً، لذلك علم أن الإنسان لا يسمع إلا إذا استيقظ قلبه، ولا يبصر إلا إذا أضاءت بصيرته. ومن هنا جاءت عبارته لتصف هذا المقام لا لتحتيله. ومن

انبثاق منهج المراقبة في التصوف:

في القرون اللاحقة، سُبِنى طرق صوفية كاملة على هذا الأصل: المراقبة، الحضور، صحو الحواس. سَيُطلب من المريد أن يُنقى سمعه من لغو الناس ليستقبل نداء الحق، وأن يُصَفِّي بصره من شواغل الهوى ليرى بنور القلب. وسيقال له: اجعل كل جارحة موضع عبادة، وكل حاسة سبيل شهادة. وما ذاك إلا لأن الإمام عليه السلام، المربّي الأول، أرسى؛ أن بداية الطريق ذكرٌ، وذروته يقظةٌ، وتمامه شهودٌ والخلاصة:

بهذا الأصل، يُظهر الإمام علي أن الإنسان لا يسير إلى الله بأقدامه فقط، بل بأن يجعل سمعه موضعاً لليقظة، وبصره موضعاً للشهود، حتى تصير كل جارحة له مرآة تعكس إشراق الغيب.

لإن من ذاق هذه اليقظة لم يُغفله الضجيج، ولم تعمه كثرة الصور، لأنه قد استصبح، وأوقد في أعماقه سراجاً لا ينطفئ.

إنه مقام النور الداخلي، الذي لا يُرى، ولكن يُعاش؛ ولا يُورث إلا عن شيخ ربّاني، كالذي قال هذه العبارة، فأنارت الطريق منذ قرون، ولا تزال.

الأصلُ الخامسُ: الاستِمدادُ من نُورِ القلوب

"واقْتبسوا من مصابيح الهداية في قلوبهم.."

بهذه العبارة الواضحة، أسس الإمام علي عليه السلام أصلاً من أصول الطريق العرفاني، قوامه أن النور ليس شيئاً يُمنح من الخارج، بل هو قبسٌ من الداخل، موجود بالقوة في القلب، وما على السالك إلا أن يقتبسه، أي يشعل ما خفي فيه، ويستخرج ما أودعه الله فيه من أنوار الهداية.

القلب كمصباح إلهي:

يصف الإمام عليه السلام القلب وكأنه يحتوي على مصابيح مكنونة، لم تُشعل بعد، لكنها موجودة. وهذا التصوير ينقلنا من تصور الإنسان كطالب للنور، إلى كونه حاملاً له بالقوة، غافلاً عنه، حتى يتيقظ إليه. إن الهداية ليست دائماً إشعاعاً خارجياً، بل هي غالباً شرارة داخلية تحتاج إلى إثارة، وتحتاج إلى مجاهدة تزيح الغبار عن زجاج المصباح، وإلى توجّه يمدّ الفتيلة بزيت الصفاء.

ما معنى أن يقتبس الإنسان من قلبه؟

الاقتباس فعل جليل، لا يكون إلا ممن يملك نوراً أصيلاً. فإذا قيل: إنهم اقتبسوا من مصابيح الهداية في قلوبهم، دلّ ذلك على أنهم لم يكونوا في حاجة إلى ضوء خارجي دائم، بل تعلموا كيف يعودون إلى ذواتهم، وكيف يصغون إلى الهدى المغروس في أعماقهم. وهذا مقام عالٍ من مقامات الاستقلال الروحي، حيث يصبح القلب كالكعبة: مركز الهداية ومنطلق النور.

سرّ هذا الإدراك عند الإمام:

لم يكن الإمام ليتحدّث عن مصاييح القلوب لو لم يُشاهد نورها، ويختبر وهجها، ويعرف كيف تُشعل، ومتى تخبو، وما يغذيها.

لقد عاش الإمام التجربة الروحية من داخلها، لا من كتب عنها، فعرف أن الهداية ليست فقط علماً يُلقن، بل ناراً تُشعل من لبّ القلب. ولذلك فإن كلامه عن القلوب ومصاييحها ليس استعارة بل وصف دقيق لحالة وجدانية عرفها وفتح بابها للورثة من بعده

القلب كمحلّ الكشف في التصوف:

الصوفية بعد الإمام علي عليه السلام أسسوا علومهم على أن القلب هو مركز التلقي. ولهذا رأينا في أدبياتهم المتأخرة تعبيرات مثل: أنوار القلب، سراج السر، إشراق الباطن... وكلها امتدادات لتعبير الإمام عليه السلام: "مصاييح الهداية في القلوب".

لم يكن هذا عندهم رمزاً شعرياً، بل مفتاحاً منهجياً: أن تبدأ التربية من الداخل، أن يُسلّك المريّد ليقتبس من قلبه، لا ليُشغل بعلوم الخارج فقط.

والخلاصة:

لقد كشف الإمام علي عليه السلام في هذه الجملة عن جوهرٍ غائب في كثير من المناهج الظاهرية: أن الإنسان لا يُخلق فارغاً، بل مملوءً بالقابلية، مشحوناً ببذور النور. وأن الهداية لا تُسقى من الخارج فقط، بل تُستخرج من القلب كما يُستخرج الزيت من الزيتون المباركة. فالمربي الحق، لا يملأ القلب، بل يُشعل مصاييحه. ومن أدرك هذا الأصل، عرف الطريق إلى نفسه، ومن عرف نفسه، عرف ربه.

الأصلُ السَّادِسُ: الثَّباتُ والبصيرةُ المُستَئيرةُ

"فلم تفتّر لهم ثغرة، ولم تخف لهم بصيرة، ولم تزل لهم
قدم.."

الثغرة التي لا تفتّر:

الثغرة هي موضع الحراسة، مكان الانتباه في روح السالك، حيث يربط قلبه على حدود الطريق لئلا يدخل العدو: النفس، الهوى، الغفلة. فمن ثبت له الذكر، وصدق له الفكر، أصبح قلبه كالحارس لا ينام. لا يفتّر عن المراقبة، ولا يبرد له عزم، ولا تضعف له همّة. وهذه حالة لا تُنال بكثرة الأعمال وحدها، بل بتراكم المجاهدات، وتصفية المنافذ، حتى يصير الذكر حالًا لا مجرد حال.

البصيرة التي لا تخف:

ثم إن البصيرة، وهي عين القلب، لا تنطفئ لمن استوقدها بنور الهداية، ولا تخفّ لمن غدّاها بالصدق والخلوة والخدمة.

البصيرة في هذا المقام ليست مجرد إدراك، بل حضور دائم لنور الله تعالى في القلب. ولذلك ترى الوليّ يعرف الحق وإن التبس، ويهتدي في الفتنة وإن اضطرب الناس، لأنه لا ينظر بالعين، بل بنور الله تعالى.

القدم التي لا تزل:

وأما الثبات، فهو تاج هذه المقامات. فمن زلّ قدمه، لم تنفعه كثرة العبادات، ومن ثبتت قدمه، لم تضره غوائل الطريق. والقدم لا تثبت إلا إذا وُضعت على أرض اليقين، واسُندت إلى سند رباني، أي إلى شيخ مربٍّ موصل النور، يُقيم المريدَ في مقامات العبودية، ويهذب ظاهره

وباطنه حتى تستقيم خطاه. ولقد رأينا من السالكين من تعجّل السير، فزلّت قدماه، لأنه لم يتزود من الحضور، ولم يتشبّث بالحقيقة، ولم يصحب من يعرف الطريق.

الطريق لصاحب القدم الثابت:

بهذا، نعلم أن الأصل السادس من أصول السلوك هو الثبات والاستقامة، وأنه ثمرة لما قبله من أصول: فلا ثبات لمن لم يُنَاجَ في فكره، ولا استقامة لمن لم تشتعل بصيرته. الثغرة، والبصيرة، والقدم، هي ثلاث علامات لمن دخل الحضرة، وأقام فيها، لا لمحة، بل مقامًا. ولذا فإن الشيخ الصادق لا يفرح بمريد يسرع في العبادة، بل يفرح بمن لا يفتّر، ولا يخبو، ولا يتزعزع. فكل سالك يعبر، لكن الواصل من ثبت. والخلاصة:

كشف الإمام علي عليه السلام بهذا الأصل مقاماً من أشرف المقامات: مقام الثبات بعد الفتح، ومقام الحراسة بعد النور. وهذا المقام لا يُورَث إلا لأولياء صدّقوا ما عاهدوا الله عليه، وما بدلوا تبديلاً.



الأصل السَّابع: الْوَلَايَةُ مَقَامُ الْأَمَنِ وَالْبُشْرَى

"أولئك هم أولياء الله، الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون"

بهذا الإعلان المبارك، يختم الإمام علي عليه السلام سرده للأوصاف الروحية العليا للعارفين، مميّزاً المقام الذي يبلغه من تحقق بالأصول السابقة: الذكر، والمناجاة، واليقظة، ونور القلب، والثبات في السير. فإذا اكتملت هذه المقامات، انكشف للمريد سرّ عظيم، وظهرت عليه علامة لا تخطئ: أنه صار من أولياء الله تعالى، الذين ارتفع عنهم الخوف، وسكن عنهم الحزن، لأنهم اتصلوا بالحق اتصالاً لا ينقطع، وتحققوا بمعيته معايشةً لا تغيب.

من هو الولي؟

ليس الولي في مدرسة الإمام علي عليه السلام من كثر دعاؤه، ولا من طال وقوفه، بل من سكن قلبه بالله، وأضاءت جوانحه بذكره، وصار في كل حاله على شهود ويقين. هو الذي ناجاه ربه في فكره، وكلمه في عقله، فأصبح له سمعٌ وبصرٌ من نور، وقلبٌ من زجاجة مصباح.

من كانت هذه صفته، فإن الطمأنينة تحيط به، لأنه لم يعد يرى شيئاً خارج إرادة الله تعالى، ولا يطلب شيئاً يفقده إذا فات، ولا يخاف شيئاً يُزعزعه إن جاء.

لماذا لا خوف عليهم؟

لأن الخوف لا يكون إلا على ما هو آتٍ، وهؤلاء صار مستقبلهم مضموناً بالله تعالى، فلا يخافون. هم كمن أوى إلى الحصن الإلهي، فلا سيف يهددهم، ولا ضياع يلاحقهم. صاروا في مأمن، لأن الدنيا

سَلَمْتُ لَهُمْ، بَلْ لَأَنْهُمْ سَلَّمُوا لِلَّهِ تَعَالَى، وَرَضُوا بِهِ، فَاسْتَرَحَوْا مِنْ
التَّوَجُّسِ، وَتَطَهَّرُوا مِنَ الْقَلْقِ.

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ... لِمَاذَا؟

لَأَنَّ الْحُزْنَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى مَا فَاتَ، وَهَؤُلَاءِ لَا يَرُونَ فِي الْفَقْدِ إِلَّا سِتْرًا
لِحِكْمَةٍ، وَفِي الْحَرَمَانِ إِلَّا تَرْقِيَةً خَفِيَّةً. لَمْ يَعُودُوا أُسْرَى الذِّكْرِيَّاتِ، وَلَا
عَبِيدًا لِلْعَلَاqَاتِ، بَلْ أَحْرَارٌ بِاللَّهِ، مُتَجَدِّدُونَ فِي الْحُضُورِ، لَا تَعْنِيهِمُ الْآلَامُ
الْعَابِرَةُ، لَأَنْهُمْ ذَاقُوا الْبَقَاءَ فِي الْحُضْرَةِ، وَعَرَفُوا أَنَّ كُلَّ مَا دُونَ اللَّهِ فَانٍ
الْوَلَايَةِ مَقَامٌ يُنَحْتُ:

لَقَدْ أَوْضَحَ الْإِمَامُ أَنَّ الْوَلَايَةَ لَيْسَتْ وَصْفًا يُدَّعَى، بَلْ مَقَامٌ يُنَحْتُ فِي
النَّفْسِ عِبْرَ مَرَاqِلٍ مِنَ التَّهْذِيبِ وَالْمَجَاهِدَةِ. مِنْ سَارَ عَلَى أَصُولِ
الطَّرِيقِ كَمَا شَرَحَهَا الْإِمَامُ عليه السلام، أَدْرَكَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ عَنْ صَدَقَ، وَاسْتَحَقَّ
أَنْ يَكُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى. فَلَا يَكْفِي الْإِنْتِسَابُ، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ الْفَتْحِ،
ثُمَّ الثَّبَاتِ، ثُمَّ التَّجَرُّدِ، حَتَّى يَتَنَزَّلَ عَلَى الْقَلْبِ هَذَا السَّكُونُ النُّورَانِي
الَّذِي يَجْعَلُ الْمُرِيدَ سَاكِنًا فِي طَمَئِينَةٍ، لَا تَتَوَثَّرُ فِيهِ الْمُتَغْيِرَاتُ.
وَالْخُلَاصَةُ:

بِهَذَا الْأَصْلِ، يَكَلِّلُ الْإِمَامُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام أَصُولَ الطَّرِيقِ
بِسَنَامِهَا: الْوَلَايَةِ. وَهِيَ لَيْسَتْ نَهَايَةً، بَلْ بَدَايَةُ عَهْدٍ جَدِيدٍ مَعَ اللَّهِ، عَهْدُ
الطَّمَأْنِينَةِ، وَالسَّلَامِ، وَالْإِتِّصَالِ. أَوْلَئِكَ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ... لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ
لَأَنْهُمْ آمَنُوا، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ لَأَنْهُمْ أَحَبُّوا.

الأصل الثامن: البصيرة الباطنية والزهد العلوي

قال الإمام عليه السلام: «إن أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم»⁽¹⁾.

من أصول الطريق العلوي التي أرساها الإمام علي عليه السلام، وامتدت جذورها في قلب السلوك الصوفي، أصلٌ دقيق لا يُختزل في الترك ولا يُقاس بالمظاهر: إنه الزهد المؤسس على بصيرة باطنية، ترى الدنيا على حقيقتها، لا في زينتها، وتزنها بميزان البقاء، لا بسطح اللذائذ في هذه الكلمات، يتجلى الزهد لا كموقفٍ سلبيٍّ من الحياة، بل كمقامٍ معرفيٍّ ووجوديٍّ سامٍ. فالإعراض عن الدنيا ليس هروباً من نعيمها، بل تمييزٌ بين ما يُنضج الروح وما يُطفئها، بين ما يُعبر به وما يُغرق فيه. نظر الناس إلى الزينة، فنظر الأولياء إلى المصير. تعلّق الناس بالعاجل، فاشتغلوا بالآجل. فصار الزهد عندهم اختياراً واعياً لا انكساراً اضطرارياً. الزهد تطهير لا تجفيف:

حين قال الإمام عليه السلام: "فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم"، لم يكن يدعو إلى قتل الحس، ولا إلى دفن الجمال، بل إلى قتل ما يميت القلب، ويُضعف البصيرة.

الزهد في هذا الأصل ليس قتلاً للغريزة، بل توجيهاً لها، وليس تحريماً للطيبات، بل تنقية للنيات. إنه إحياء للحرية الباطنة، حيث لا يُستعبد الإنسان بما يملك، بل يتحرر بما يزهد فيه.
أساس الفناء والبقاء:

لقد صار هذا الأصل عند الصوفية نواة لما سُمّي لاحقاً بـ (الفناء عن الخلق والبقاء بالحق)، وهو مقام من يرى أن كل ما سيفنى لا يستحق التعلّق، وكل ما يتصل بالحق جديرٌ بالبقاء.

الإمام علي عليه السلام لم يُسمّ هذا الأصل، بل جسّده، فتقدّم الاصطلاح، وسبق الطرق، وغرس الرؤية.

لذلك يُعدُّ أصل الزهد العلوي من أعمدة العرفان العملي، لأنه يتعامل مع الدنيا لا كمحرم، بل كممرّ، لا يُقام فيه بل يُعبر منه.
والخلاصة:

بهذا الأصل، تعلّمنا الإمام علي عليه السلام أن الزهد ليس فقراً ولا حرماناً، بل بصيرة تُضيء داخل النفس، فتجعل الإنسان يختار ما يبقيه، ويدع ما يُفنيه.

هو زهد لا يُقصي الجمال، بل يضعه في مكانه، ولا يمنع المتاع، بل يفكّ ارتباط القلب به.

زهد عليّ بن أبي طالب عليه السلام، هو الزهد الذي لا يُطفئ الحياة، بل يُنقيها من الوهم، لتصير جديرة بأن تُعاش لله تعالى، لا لغيره.

الأصلُ التَّاسِعُ: التَّوَجُّهُ القَلْبِيُّ والارتباطُ الرُّوحِي

«صاحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلقة بالمحل الأعلى»⁽¹⁾.

من بين الأصول - في الطريقة العلية- التي أرسى دعائمها الإمام علي عليه السلام، وتميّز بها عن سائر الصحابة، التوجُّه القلبي العميق والارتباط الروحي العلوي بالله تعالى.

لم يكن هذا التوجُّه مجرد حالة وجدانية عابرة، بل مقامًا ثابتًا، يوجِّه السلوك ويطبّع الشخصية بطابع الحضور المستمر. وقد عبّر الإمام عن هذه الحقيقة الدقيقة بتوصيته الصوفية:

فهو يرسم بذلك ملامح الإنسان الربّاني، الذي يسير في الأرض بجسده، بينما تظلّ روحه متصلة بالعالم الأعلى، لا تتفصل عن المجتمع، لكنها لا تغفل عن الله، تبني في الأرض بعينٍ على السماء.

هذا الأصل هو اللبنة الأولى في كل سلوك صوفي لاحق، وهو ما سترجمه الطرق لاحقاً بمصطلحات مثل "الحضور"، و"الذكر القلبي"، و"الرابطة"، و"المراقبة"، لكنّ الإمام علياً عاشها قبل أن تُصاغ، وربّما عليها من حوله، لا بالأوراد المنظّمة، بل بزرع الحنين إلى الله في القلوب، حتى لا تهدأ إلا بلاقائه.

1 - نهج البلاغة، مصدر سابق، خطبة رقم [193].

الأصل العاشر: الأخلاق سبيل الصلة بالله

في وصيته لابنه، يقول الإمام عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
جعل محاسن الأخلاق وُصلةً بينه وبين عباده، فنحب
أحدكم أن يمسك بخُلُقٍ متّصلٍ بالله تعالى»⁽¹⁾.

من الأصول التربوية الصوفية العميقة التي أرساها الإمام علي عليه السلام،
أن السلوك الأخلاقي ليس مجرد فضيلة اجتماعية، بل هو وسيلة
وصلة بين العبد وربّه.

هذا النص يؤسّس لرؤية صوفية ترى في مكارم الأخلاق سُلماً للترقي
في القرب من الله تعالى، لا لأنها تُحسّن صورة الإنسان أمام الناس، بل
لأنها تجعله في موضع الوصال الإلهي.

فالصدق، والرحمة، والتواضع، والوفاء، وغيرها من المحاسن، ليست
مجرد أخلاق، بل أسماء سلوكية لله تعالى تجلّت في العبد، وكلّما اشتدّ
التخلّق بها، ازداد العبد قرباً من الأصل الذي تتبع منه: وجه الله. ومن
هذا الأصل تفرعت في التصوف لاحقاً قواعد كبرى مثل:

- أن "التخلّق بأخلاق الله" هو طريق التحقيق،
- وأن "السير إلى الله" لا يتم إلا عبر مجاهدة النفس وتزكيتها،
- وأن المراتب الروحية تُقاس بما يزرعه السالك من مكارم في قلبه
وأفعاله، لا بما يحفظه من علوم.

1 - الميرزا حسين النوري الطبرسي، مستدرك الوسائل، مؤسسة آل البيت
عليهم السلام لإحياء التراث، 1988، حديث رقم [19]، ج11 ص192.

مُحَمَّد نور بابه عَلِيّ

فالطريقة العلوية، في عمقها، هي تربية خُلُقِيَّة متّصلة بالله، قبل أن تكون نظام أُرَاد أو مراسم بيعة، وهي تصوغ الإنسان ليكون صورة نورانية أخلاقية لله في الأرض.

خلاصة الأصول:

إن هذه الأصول تُظهر الإمام علي ليس كمحدّث أو فقيه فحسب، بل كمرَبٍّ رُوحِيٍّ، وشيخ على الحقيقة، يُرسي قواعد الطريق، ويفتح أفقاً واسعاً لما سيعرّفه التصوف لاحقاً من مجاهدات ومراتب ومقامات. فكل ذلك قد وُضع جوهره هنا، قبل أن تُصاغ الأسماء، وقبل أن تُبنى المدارس.

وعلى هذا، لو أَنَا تتبّعنا حياة الإمام عليّ عليه السلام، بعين القلب والبصيرة، لوجدنا أن كلّ حركة من حركاته، وكلّ سَكَنَة من سَكَنَاتِهِ، كانت تأسيساً لأصلٍ من أصول الطريق، وإشعّالاً لنورٍ في دروب السالكين، وزرعاً لبذرة روحية نقيّة، امتدت أغصانها عبر القرون، ونمت وأثمرت في صدور الأولياء والعرفاء، حتى بلغت زماننا الحاضر، تفيض بمعانيها، وتُثير بسلوكها، وتربطنا بذلك الجذر النبويّ العلويّ الذي لا يزال يمدّ الأرواح بالحياة



خُلَاصَةُ الْفَصْلِ الْخَامِسِ

الإمام علي كمصدر أصلي للتربية الروحية
يعرض هذا الفصل الإمام علي عليه السلام كمصدر أصيل للتربية الروحية،
قبل أن تتبلور الطرق الصوفية بصيغتها المؤسسية لاحقاً، حيث كان
حضوره التربوي متقدماً على وجود الأطر التنظيمية للطريق.

اتصال مباشر بنور النبوة لا تأسيس تقني
لم يكن الإمام علي مؤسساً لطريقة محددة بالمعنى التقني، بل
كان مربّي الأرواح المتصل مباشرة بنور النبوة، مظهراً للولاية الكبرى
التي تفتح القلب على الله دون وسيط، وتصوغ الإنسان من الداخل لا
من الخارج.

الطرق الصوفية استجابات تاريخية لا انشقاقات
تشكّلت الطرق الصوفية لاحقاً استجابة لتحولات التاريخ
والمجتمع، لا بوصفها خروجاً عن الأصل العلوي، بل امتداداً له بصيغ
تنظيمية جديدة تلبي حاجات الزمان والمكان، بينما الجوهر بقي
متصلاً بالباب الأول.

الإمام علي جذع الشجرة الروحية للطرق
يشبّه الإمام علي بجذع الشجرة الروحية التي تفرّعت منها الطرق
الصوفية. كل فرع يعود إليه من حيث الجوهر، فهو الحلقة التي تبدأ
منها الأنوار وتنتقل عبر الأجيال.

تحذير من الإسقاط الحرفي على الطريقة العلوية
يحذر النص من محاولة إسقاط النموذج العلوي على الطرق
الحديثة حرفياً، فلكل مرحلة ظروفها، غير أن الأصل الروحي واحد، ومن
يفهم الجوهر لا يغترّ بالشكل.

مُحَمَّد نور بَابُهُ عَلِيٍّ

الطريقة العلوية كتجربة تربوية لا مؤسسة

ينبغي إعادة فهم الطريقة العلوية لا كمؤسسة تحمل اسماً، بل كحالة ذوقية تربوية مباشرة، حيث الإمام علي كان يربّي بالمحبة، لا بالتراتب؛ بالحضور، لا بالبرامج.

حضور الجوهر الصوفي دون الاصطلاحات

كانت مفاهيم الذكر، والبيعة، والخلة، والفيض، وغيرها، حاضرة في حياة الإمام علي بجوهرها، وإن لم تُعرف آنذاك بهذه الألفاظ، فقد سبق اللغة بالمعنى، وتجلّى فيه السر قبل أن يُقال.

الخطبة العلوية بوصفها أصل الطريق الصوفي

يركز الفصل على خطبة مركزية للإمام علي تتضمن أصول الطريق كما عاشها: الذكر، البصيرة، المناجاة، الهداية، الثبات، والولاية، وهي مفاتيح السلوك الباطني كما تتناولها المدارس الصوفية حتى اليوم.

الذكر: جلاء وبصيرة للحواس الباطنة

الذكر عند الإمام ليس تكراراً لفظياً، بل قوة باطنية تزيل الحجب عن القلب، وتفتح فيه سمعاً وبصراً روحين؛ إنه جلاء يعيد للإنسان روحه التي ران عليها الغفلة.

المناجاة الفكرية: سلوك روحي صافي

ثمّة عباد ناجاهم الله في فكرهم، لا بأذانهم، وكلمهم في ذات عقولهم، لا بألفاظ مسموعة. هذا هو مقام حيث الفكر يتحوّل إلى مقام للوصال.

البصيرة: إشراق داخلي متصل بالحضور

فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار، فأشرق بصيرتهم من الداخل، لا من دليل خارجي. هذا هو الكشف الذي يميّز الأولياء عن المتكلمين.

الهداية القلبية: النور من الداخل

اقتبسوا من مصاييح الهداية في قلوبهم، فلم يطلبوا النور من الخارج بل من داخلهم، إذ القلب هو محل النور، لا العقل وحده.

الثبات: قوّة في المسير لا تضعف

لم تفتّر لهم ثغرة، ولم تخف لهم بصيرة، ولم تزل لهم قدم، ولم تضعف لهم قوة. هذه الصفات تصف الثبات الباطني الذي لا يرهقه الزمن ولا تعصف به الفتن.

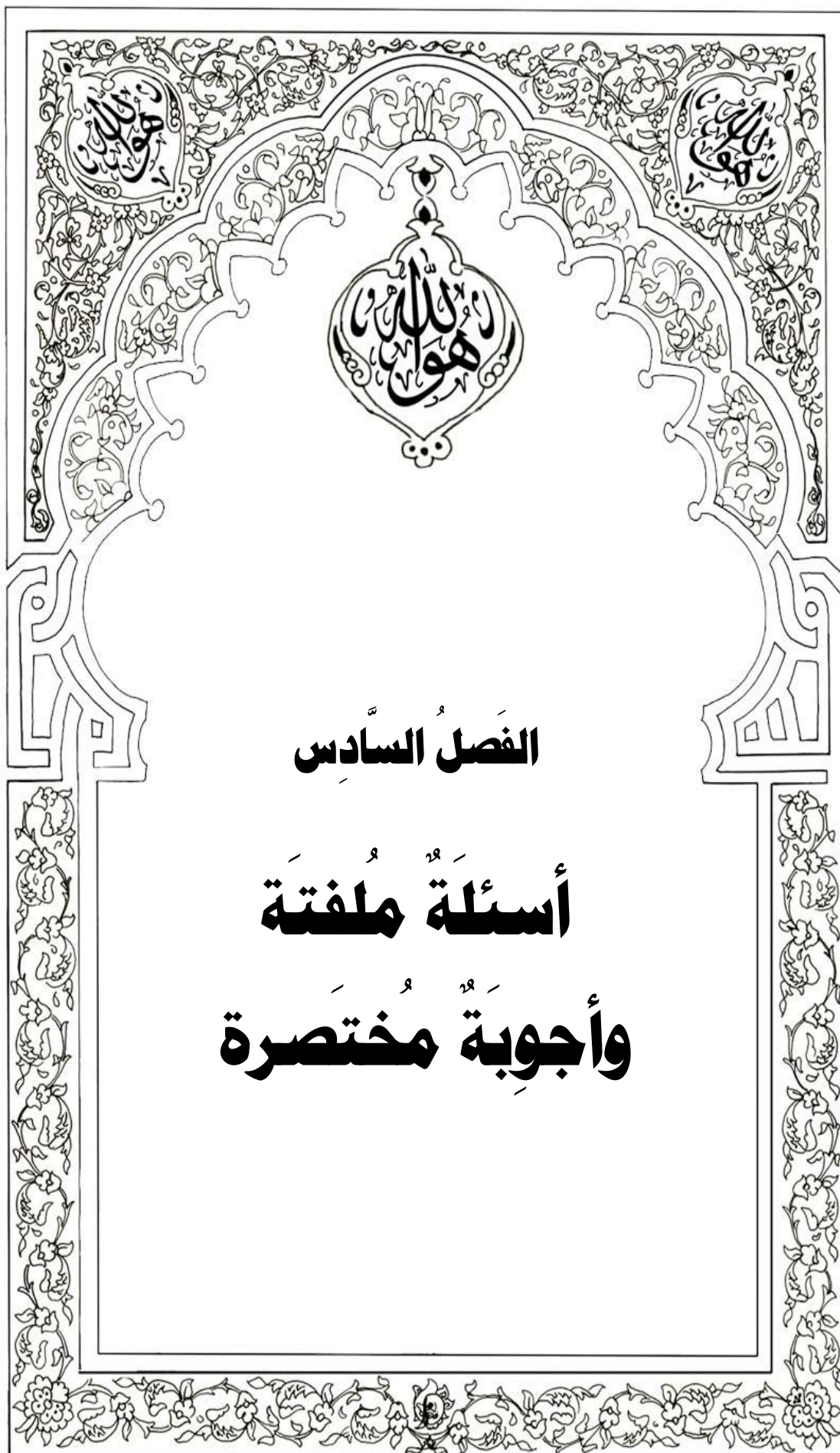
الولاية: ثمرة السلوك إلى الله

في نهاية المسير، يكون الجزاء ولاية: أولئك هم أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. إنها الولاية الناتجة عن الذكر والبصيرة والثبات، لا التي تُدعى بالكلام.

الإمام علي سابق في الذوق والولاية

هكذا يتجلّى الإمام علي في الفصل بوصفه رائد الذوق الصوفي، وسابق الولاية الحقيقية، فكل ما ظهر لاحقاً من مذاهب وسلاسل، لم يكن إلا امتداداً لِسِرِّ نزل في قلبه، وسرى في القلوب من بعده..





الفصل السادس

أسئلة ملفتة

وأجوبة مختصرة

سؤال: عَنْ إِعْلَانِ الْبَابِ وَإِخْفَائِهِ

هل جميع مشايخ السلسلة هم أبواب لمدينة العلم
المحمدي، أم أن "الباب" هو مَنْ يُعْلَن عنه فقط، ويتجلى
فيه السرّ علناً دون سواه؟

الجواب: ليس كلّ شيخ في السلسلة يُعَدّ "باباً" بالمعنى الظاهر،
وإن كان كلّ منهم وارثاً لسرّ الطريق وحلقةً من حلقات النور. فـ "الباب"
في معناه الخاص هو تجلّ علنيّ لمقام الولاية العظمى، يُعلن عنه في
الزمان عندما تقتضي الحكمة أن يُظهر الله سرّه على رؤوس الأشهاد،
لحاجة الناس إلى من يدلّهم على المدينة دلالةً مباشرة، ولوجود من
يستحق أن يُفتح له الباب. أما بقية المشايخ، وإن لم يُعلن عنهم
بصفتهم أبواباً، فهم حَمَلَة للسرّ، وعَبَّارون مخلصون إلى الطريق، يُرَبِّون
السالك ويهيئونهم للعبور، لكنهم لا يمثلون "الممر الواحدي" بذاته، بل
يُشيرون إليه ويُعدّون من دلائله.

إذن، فإعلان الباب ليس شأنًا تشريفيًا ولا ترتيبًا تنظيميًا، بل هو أمرٌ
يرتبط بجلال الولاية وسرّها، ويُعلن حين تتوفر ثلاثة شروط:

الشرط الأول: حضور المظهر الكامل للسرّ النبوي في شخص
الشيخ، ظاهرًا وباطنًا.

الشرط الثاني: وجود حاجة روحية في الزمان تتطلب ظهور الباب
وتحديد بوضوح.

الشرط الثالث: استعداد الأمة أو جماعة السالكين لتلقّي السرّ من
حاملٍ ظاهرٍ يُجَلِّي الطريق.

من هنا، نفهم أن الباب قد يُحمل في الخفاء، ولكن لا يُعلن عنه إلا

بأمرٍ إلهيٍّ تُدرّكه قلوب العارفين، ويقع في حينه لا قبله ولا بعده
وفيما يلي تحليل لتاريخ اعلان الباب وخفائه وصولاً إلى يومنا هذا:
أحدية المدينة:

المدينة في الحديث ليست مكاناً، وإنما هي رمزٌ عميقٌ يُعبّر عن
العلوم والمعارف التي احتواها قلب النبي ﷺ: علم الشريعة، وعلم
الحقيقة، وعلم السرّ، وهي النبوة والرسالة والولاية. هذه المدينة
الروحية تمثل مقام الأحدية النبوية، التي لا يُمكن الدخول إليها إلا من
بابها المخصص لها.

واحدية الباب:

أما الباب، فهو الممر الواحديُّ إلى المدينة، وقد أعلن الرسول الأعظم
ﷺ عنه بشكل صريح وواضح حين قال: ﴿أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ
بَابُهَا﴾⁽¹⁾، محدّداً بذلك حامل سر الباب في عصره.

لم يكن اختيار الإمام عليٍّ بسبب قرابة النسب، بل لأنه كان المؤهل
الكامل لحمل سرّ المدينة، بما اشتمل عليه من العلم، والشجاعة،
والعبادة، والفهم العميق، والولاية المباشرة من النبي ﷺ.
الطريقة العلية:

ثم جاءت الطريقةُ لتمثل المسار الروحي الممتد من الباب إلى
السالكين، فهي لا تُعرف بذاتها وإنما من خلال الباب الذي تعبر منه.
فكل طريقة لا تمرّ عبر باب الإمام علي لا تؤدي إلى المدينة.

1 - الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، دار الكتب العلمية - بيروت،
ط 1، 1990م، رقم الحديث [4637]، ج 3 ص 137.

مُحَمَّد نور بابه عَلِيٍّ

مع انتقال الإمام علي عليه السلام، لم يُعلن رسمياً عن باب آخر، لكن الطريق الروحي ظل مفتوحاً، وانتقلت أسرارته بشكل باطن إلى من يحمل أمانته.

التفرع إلى جناحين:

كان قد أُعطى الإذن بالطريقة لكلٍّ من الإمام الحسين بن علي عليه السلام والشيخ الحسن البصري (قدس سره)⁽¹⁾ في زمن متقارب، ورغم ذلك، لم تُنسب الطريقة إلى أيٍّ منهما بشكل رسمي، فلم تسمى بالطريقة الحسينية أو البصرية مثلاً، بل حافظت على تسميتها الأصلية بـ "الطريقة العلية". يستدل من هذا الأمر على أن المسار ظل واحداً، وأن من سار فيه بقي مرتبطاً بذات الباب، لا بطريق منفصل.

1 - قال الإمام جلال الدين السيوطي في رسالته (اتحاف الفرقة برفو الفرقة) ما نصه: «مسألة: أنكر جماعة من الحفاظ سماع الحسن البصري من علي بن أبي طالب [رضي الله عنه] وتمسك بهذا بعض المتأخرين، فخدش به في طريق لبس الخرقه، وأثبتته جماعة وهو الراجح عندي».

وقال أيضاً: «وذكر المزي: أنه حضر يوم الدار وله أربع عشرة سنة، ومن المعلوم أنه من حين بلغ سبع سنين أمر بالصلاة، فكان يحضر الجماعة، ويصلي خلف عثمان إلى أن قتل عثمان، وعلي إذ ذاك بالمدينة، فإنه لم يخرج منها إلى الكوفة إلا بعد قتل عثمان، فكيف يستنكر سماعه منه وهو كل يوم يجتمع به في المسجد خمس مرات من حين ميز إلى أن بلغ أربع عشرة سنة؟ وزيادة على ذلك أن علياً كان يزور أمهات المؤمنين، ومنهن أم سلمة، والحسن في بيتها هو وأمه».

كذلك «عن يونس بن عبيد قال: سألت الحسن قلت: يا أبا سعيد، إنك تقول: قال رسول الله ﷺ، وإنك لم تدركه، قال: يا ابن أخي، لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد قبلك، ولولا منزلتك مني ما أخبرتك أنني في زمان كما ترى - وكان في عمل الحجاج - كل شيء سمعتني أقول: قال رسول الله ﷺ فهو عن علي بن أبي طالب، غير أنني في زمان لا أستطيع أن أذكر علياً». أنظر: جلال الدين السيوطي، الحاوي للفتاوي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، 2004 م، ج2 ص122-123.

بكلمات أخرى: الطريقة تفرّعت إلى جناحين، لا على سبيل الانقسام، بل كتنويع وتوزيع للوراثة الروحية:

- جناحٌ ينتقل عبر نسل الإمام الحسين عليه السلام، حاملاً نور النبوة والدم الشريف.
- وجناحٌ ينتقل عبر المشايخ من الموالين والتابعين، حاملاً سر التربية والتزكية.

اجتماع الجناحين:

ثم جمع الشيخ معروف الكرخي بين هذين الجناحين، وهو النصراني الذي أسلم على يد الإمام الرضا عليه السلام، وكان خادماً له، وتلقى سر التربية عبر مسار الحسن البصري. لم يعلن أن الشيخ معروف الكرخي (قدس سره) قد ظهر بمقام الباب في زمانه، بل كان نقطة التقاء للجناحين فقط، فبقيت الطريق عائدة متصلة في مرجعيتها إلى باب الإمام علي عليه السلام.

الباب بصيغة القادرية

مع ظهور الشيخ عبد القادر الكيلاني (قدس سره)، حدث تحولٌ بارزٌ في تاريخ التصوف الإسلامي، إذ أعلن حضرة الشيخ بوضوح عن نفسه بوصفه "الغوث الأعظم" و"باب الطرائق في عصره".

هذا الإعلان لم يكن مجرد تجديدٍ لألقابٍ روحية، أو استحداثٍ مقامٍ جديدٍ لم يكن معروفاً من قبل؛ بل كان تذكراً وإحياءاً لمفهوم "الباب" ذاته، كما سبق أن أعلنه النبي ﷺ في حق الإمام علي بن أبي طالب حين قال: ﴿أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا﴾⁽¹⁾.

1 - النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، رقم [4637]، ج3 ص137.

الشيخ عبد القادر الكيلاني (قدس سره)، بعبارته الشهيرة وإعلانه الجريء، لم يؤسس طريقةً روحيةً جديدةً منفصلةً عن جذورها، وإنما جسّد المقام الروحي الأعلى للباب في صورة جديدة وبصبغة متوافقة مع عصره واحتياجات أهل زمانه.

هذا التجلي الجديد للباب في الشيخ عبد القادر (قدس سره)، جاء بمثابة إعادة افتتاحٍ لمعنى الولاية العظمى التي تمنح صاحبها صلاحية توجيه القلوب وإرشاد النفوس نحو المدينة المحمدية.

اتخذ الباب هذه المرة لوناً خاصاً يُعرف بـ"القادرية"، نسبةً إلى الشيخ عبد القادر (قدس سره)، فغدّت هذه الطريقة هي الامتداد الطبيعي للمسار العلوي الأصلي، وليست ابتكاراً منفصلاً أو مساراً موازياً.

إن القادرية، من حيث حقيقتها، لم تكن سوى الباب نفسه وقد ارتدى حلّة مناسبةً لزمانه، فأعيد بذلك إظهار النور والسرّ في صيغة جديدة تتناسب مع ظروف المجتمع الإسلامي آنذاك.

وبهذا، غدا الشيخ عبد القادر الكيلاني نقطة تقاطع بين الماضي والحاضر في تاريخ الباب، فأعاد إحياء مفهوم الولاية الكبرى التي تحمل مفاتيح العلوم الروحية، وأعلنها واضحةً صريحةً لكل من يبحث عن الحقيقة. وأصبحت طريقته "القادرية" ذات طابع عالمي، امتدت شرقاً وغرباً، لا يكونها مساراً جديداً، وإنما كإعلانٍ جديدٍ ومتجددٍ للباب الواحد الذي افتتحه الإمام علي وظل مفتوحاً إلى الأبد، يتجلّى كلما حان وقت ظهوره، ويختار له شخصيةً روحيةً تحمل سره وتطلق باسمه.

خُلود الباب في الكسنزانية:

حين بلغ النور العلوي ذروته في حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني، (قدس سره) لم يتوقف، ولم ينحصر في بغداد، بل ظلّ يتنقل، من صدقٍ إلى صدق، ومن حضرة إلى حضرة، حتى استقرّ في صدور رجالٍ

عاشوا التربية أكثر مما تكلموا عنها، ورثوا الذكر، لا بالشعارات، بل بدموع المجاهدة، وببساطة الزهاد، وبهمة العارفين.

في القرن التاسع عشر، برز الشيخ عبد الكريم شاه الكسنزان (قدس سره)، رجلٌ عاش بعيداً عن الأضواء، ثم خرج إلى العالم من خلوته، حاملاً لهجة الذكر، لا لغة الادعاء، عرفه الناس لا بكثرة الخطب، بل بما يقع في القلوب إذا حضر.

الذين شهدوه، لم يجدوا فيه كثيرَ تنظير، لكنهم وجدوا أثراً يُحسّ، حالة روحية مُحَمَّلة بميراث القادرية، يسري فيها خيط من النور القديم: نور الإمام علي عليه السلام.

لم يكن صاحب مدرسة فكرية، بل صاحب خلوة وذكر وفتح، ابتعد عن الناس أربع سنوات، ثم عاد وقد تغيّر فيه شيءٌ لا يُفسّر، ورأى فيه المريدون نوعاً من الطمأنينة التي تُشبه ما يُورث من باب علي عليه السلام.

لم يتكلّف في المظهر، ولا في الدعوة، كان في حاله نوع من العبور الصامت الذي تُرى فيه التربية بلا خطاب، وفي عزلته، كان هناك شيء من سر الإمام علي: قتالٌ بلا سيف، وفتوحاتٌ بلا ضجيج.

العارفون لا ينظرون إلى كثرة الكتب ولا الأتباع، بل ينظرون: هل في الشيخ أثر من أولئك الذين أضاعوا الطريق؟

في الشيخ عبد الكريم شاه الكسنزان (قدس سره)، وجدوا ذلك الأثر، كنور الحياة الذي يسري في جذع شجرة دون أن يُرى، لكنه ما إن يصل إلى فرعها، حتى يُثمر.

لذلك، لم يكن اسمه شعاراً، بل نقطة واصله في طريق طويل، طريق بدأ في محراب مولانا علي عليه السلام، ومزّ بالشيخ عبد القادر (قدس سره)، ثم وصل إلى كردستان، فكان الشيخ عبد الكريم (قدس سره).

حلقة تحفظ النور بهدوء، وتُسلمه بيقين.

هكذا بقي العهد، ينتقل من أهل الخلوة إلى أهل العزلة، ويُسلم لمن سكن فيه الخوف من الله أكثر من الرغبة في الظهور، وكان شاه الكسنزان واحداً من أولئك الذين ساروا على الحبل الخفي للعهد، تحت عين الله، وبنور محمد وبابه علي (صلوات الله عليهما).

هنالك مُهد الطريق لإعلان فريد من نوعه، لم يُعرف مثيل له في التاريخ الصوفي: وهو أن مقام الباب، الذي افتتحه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وأعاد الشيخ عبد القادر الكيلاني (قدس سره) إظهاره بصبغة القادرية، سيظل ظاهراً ومتجدداً في سلسلة مشايخ الطريقة الكسنزانية إلى يوم القيامة.

تتجلى حقيقة بقاء المشيخة (الباب) في هذه العائلة المباركة في معاهدة حضرة الشيخ عبد الكريم شاه الكسنزان (قدس سره) مع الله تبارك وتعالى حيث قال: «أنني قد أخذت من الله تبارك وتعالى عهداً وميثاقاً بأن تظل المشيخة باقية في أهل الطريقة وأصحابها الحقيقيين ولا تخرج عنهم أبداً حتى وإن لم يبق من أفراد العائلة الكسنزانية سوى عجوز عمياء فاستلمت المشيخة وسارت بها فأن الله تبارك وتعالى يسهل لها طريقها ويكون في عونها ما دامت هي متمسكة بالطريقة وتسلك سبيل الإرشاد»⁽¹⁾.

هذا الإعلان لم يكن مجرد بيانٍ روحي أو صيغةٍ بلاغية، بل كان نقلةً نوعيةً عميقةً في فهم الولاية ومقام الباب نفسه. إذ إن كل شيخ من مشايخ الكسنزانية بعد هذا الإعلان أصبح حاملاً صريحاً لمقام الباب

1 - السلطان الخليفة محمد المُحمد الكسنزان، الطريقة العلية القادرية الكسنزانية، ص 170.

في عصره، وظاهراً أمام الناس لا باطنياً مستتراً أو خفياً. لقد تحوّل مفهوم الباب بذلك من كونه مقاماً استثنائياً يظهر في حالاتٍ نادرة عبر التاريخ، إلى مقامٍ مستمر الحضور والتجليّ، ظاهرٍ في كل جيلٍ من الأجيال التي تحمل أمانة الطريقة الكسنزانية.

إن شيخ الطريقة الكسنزانية لا يُعدّ باباً لمجرد كونه مؤسساً لطريقة صوفية أو صاحب مدرسة روحية، وإنما لأنه نقطة التقاءٍ لجميع الطرق الروحية الصحيحة، والممر الحيّ الذي يوصل مباشرةً إلى المدينة المحمدية. فكل من أراد الدخول إلى مدينة العلم المحمدي لا بد له من المرور عبر الباب، الذي لا يزال حياً وظاهراً في شخص الشيخ الكسنزاني الحاضر.

بهذا الإعلان المتفرد، لم تعد الطريقة الكسنزانية مجرد منهج تربوي أو مسارٍ روحي تقليدي، بل باتت معبراً حياً ومتجدداً نحو الحقيقة المحمدية، والولاية العلوية الكبرى التي افتتحها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. ومن ثم أصبحت الكسنزانية تمثّل هذا الباب الحي المتجدد في صورته وتجليه عبر الزمان، دون أن يطرأ على جوهره تغيير أو تعدّد. فهو ذات الباب الواحد الذي بدأ مع الإمام علي عليه السلام، وتجلّى ثانية مع الشيخ عبد القادر الكيلاني (قدس سره)، ليصبح ظاهراً بشكل دائمٍ ومستمرٍ في سلسلة الكسنزانية، يتجدد ويتجلى حسب حاجة كل عصر.

وهكذا، فإن الكسنزانية اليوم ليست طريقةً روحيةً فحسب، وإنما هي بابٌ حي، ومقامٌ دائم التجدد، يتواصل عبره السالكون مع المدينة الروحية التي يحملها قلب النبي صلى الله عليه وآله.

لقد غدت الكسنزانية التعبير الأمثل عن مفهوم الباب في معناه الأشمل، من خلال شيخ ظاهرٍ في الزمان، متّصلٍ بأصل المدينة، ومستمرٍ في حمل أسرارها ومعارفها إلى يوم الدين.

خلاصة القول:

- المدينة هي علوم النبوة والرسالة والولاية، لا تُدخل إلا عبر باب.
- الباب مقام الولاية الكبرى، وهو واحد في جوهره، متعدد في تجلياته وحَمَلَتِهِ.
- والطريقة هي السبيل الممتد من الباب إلى السالكين، فكلما صَفَتْ وَنَقَّتْ، دلت بوضوح على الباب.
- واليوم، هذا الباب ليس مجرد ذكرى تاريخية مرتبطة بالإمام علي عليه السلام، بل هو مقام نوراني متجدد ومتجَلِّ باستمرار.
- وفي الكسنزانية، هذا الباب حيٌّ، ظاهر، ومفتوح لكل من صدق في سلوكه الروحي وتطلَّع بصدق نحو المدينة.



سؤال: عَنْ تَعَدُّ أَسْمَاءِ الْبَابِ

إذا كان الباب معروفاً، فلماذا تعددت الأسماء في الطريق؟ لماذا يُقال العليّة؟ ثم القادرية؟ ثم الكسنزانية؟ هل الباب تغيّر؟ أم تعدد؟ أم ماذا؟

الجواب: كان الفهم الأوّل لهذا التعدّد، أنه نابع من تغير الواقع الخارجي، فمع تراكم الحُجب، وتشتت الهمم، وتقلّب العصور، ظهر على مرّ الزمن رجالٌ من أهل الله، أقامهم الله ليُعيدوا فتح الصلة بالباب، فكانت كل طريقة بمثابة إعادة توجيه الأمة إلى الباب الواحد، بلسانٍ جديد، وحالٍ يوافق أهل الزمان.

غير أن الفهم الذي انكشف لنا، وإن كان لا ينفي هذا الفهم، إلا أنه يرى ما هو أعمق: إن القامات الكبرى، كالشيخ عبد القادر الكيلاني، والشيخ عبد الكريم الكسنزان (قدست أسرارهم المباركة) لم يكونوا مجددين للصلة فقط، بل كانوا من شدة فنائهم في النور، مظاهر له.

ما حدث معهم لم يكن إعادة فتح الباب... بل أن النور العلوي لما تجلّى فيهم، تلون بلونهم، وظهر من خلالهم، فصار الإمام عليّ حاضراً في القادري، وصار عليّ والقادري حاضرين في الكسنزاني.

ليس بمعنى الحلول، ولا بالانفصال، بل بمعنى أن من صفا وفني في الباب، صار الباب يُرى في وجهه، وسرّ المدينة يُسمع في صوته، ونفس النور يُشَمّ في حضرته.

وهكذا لم تتغير المدينة، ولم يُفتح باب آخر، بل النور نفسه حين وجد صدوراً صادقة، أذن لنفسه أن يتجلّى بها، فكان لكل عصر لون، ولكل أهل زمان تجلٍّ، ولكل مريد مفتاح، لكن الباب واحد.

مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

والسالك إذا دخل الحُضرة الكسَنزانية، فإنه لا يبتعد عن العليّة، بل يراها متحققة فيها، ولا يغيب عنه القادري، بل يجده ساكناً في الروح. لأن النور الذي بدأ من محمد ﷺ، عبر من عليّ، ثم تجلّى فيمن فني فيه، فصار العهد متصلاً، لا بالسلسلة فقط، بل بدرجة الفناء وهكذا يتبين أن تعدد الأسماء لا يعني تعدد الأبواب، بل هو تجلّ واحد بلون من فني فيه، وهذا التجلي لا يتعارض مع تغير الواقع، بل يجيبه بلغة الحضور. فالله لا يقطع نوره، لكن من يبلغ مقام الفناء، يُعطى أن يُظهره بما يليق بالزمن.



سؤال: عَنْ نَقْلِ النُّورِ لَا الْحُرُوفِ

ما سر استمرار الطريقة الصوفية وقوتها وتماسكها عبر الزمن؟

الجواب: ليس من العجيب أن تُحفظ السلاسل العلمية في كتب الرجال، لكن الأعجب أن يُحفظ النور في الأرواح.. منذ اللحظة التي أُوكل فيها النبي ﷺ سرّه إلى عليّ، بدأ النور يتحرّك في الأرض، لا بوصفه موروثاً حرفياً، بل أمانة تُحمَل في الصدور، وتُسَلَّم لمن صفا وتطهّر وتهيّا.

سلاسل الطرق الصوفية لا تقوم على الحفظ فقط، بل على النور هي ليست شجرة نسب، بل شجرة حياة، أصلها في محمد ﷺ، وبابها في عليّ عليه السلام، وفروعها في أهل الله تعالى، تثمر في كل قلبٍ تهياً لليقظة. في قلب كل طريق صوفي صادق، خيطٌ ممتدّ إلى الإمام عليّ عليه السلام. ليس بالاسم فقط، بل بالذوق، وبالشجاعة، وبالحضور، وبالإشارة، وبالمقام. الشيخ الصادق لا يرث عليّاً عليه السلام في الحديث، بل في الحال.

من لم يُشرق فيه نور عليّ عليه السلام، فكيف يُشرق منه نور محمد ﷺ؟ ليس كل من انتسب إلى طريق هو من أهلها، وليس كل من حفظ السند قد ورث النور، فالطريق لا يقوم على الورق، بل على الوارث، ومن لا يحمل شيئاً من تلك النار الأولى، لا يُشعل بها قلوب المريدين. العارفون يعلمون أن كل شيخ ربّاني هو شعلة من نور الإمام عليّ، يمرّ من خلاله، لا ليتوقّف عنده، وكما أن النور لا يُحتجَز، كذلك الولاية لا تُؤخذ إلا بالتسليم، والتأدب، والصدق.

مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

سريان النور في السلاسل ليس مسألة تاريخية، بل حياة معاشة.
تراه في صدق الصحبة، في مقام الشيخ، في رائحة الحضرة، في نور الوجه،
في كلمة تُقال فتوقظ فيك ما كنت تظنه نائماً.

السالك الذي يسلك في طريق لا يُشَمُّ فيه أثر عليٍّ، سيفتقد القوة
في مجاهدته، والعدل في قلبه، والبصيرة في خطواته، لأن هذا الطريق
يُنِيّ من قلبٍ ما نطق إلا حقاً، وما سجد إلا حباً، وما قاتل إلا لأجل الله
تعالى.

وإذا كان النور المحمدي لا يُنال إلا عبر باب، فإن هذا الباب لا يزال
يُفتح في كل زمان عبر رجالٍ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فيهم قبسٌ
من فاطمة، وظلٌّ من عليٍّ، وعطر من محمد ﷺ.



سؤال: عَنْ نَقْلِ الْوَلَايَةِ مِنَ النَّبَوَّةِ

ما هو سر الرابطة بين النبي محمد ﷺ والامام علي العليّة ؟

الجواب: إن ما يربط الإمام علياً برسول الله ﷺ ليس فقط النسب، ولا الصحبة، ولا الشهادة، بل شيء أعمق من ذلك كله... إنه السند الباطني.

ذلك الخيط الخفي الذي لا يرى بالعين، ولا يُقاس بالكلمات، ولكنه يسري بين الأرواح كما يسري الدم في العروق... سرّ يُحمَل لا يُعلَن، ويُذاق لا يُصاغ.

في عالم الظاهر، نرى الأيدي تُصافح، والبيعة تُعلن، والخلافة تُدبّر. لكن في عالم الباطن، هناك إذن لا يُسمع، تسليم لا يُرى، ونور يُودع في القلب، من قلبٍ قد حمله من قبل.

وهكذا انتقلت الولاية من رسول الله ﷺ إلى عليّ العليّة، لا من باب التنصيب السياسي، بل من باب التسليم والاستلام الروحي.

لا بتصويت أو جمع، بل بفيض، حين اقترب المحبّ من المحبوب، فقال له النبي ﷺ - لا للناس - بل له وحده: أنت مني.

كانت كل لحظة من لحظات الإمام عليّ العليّة بجانب النبي ﷺ تهيئة لاستقبال هذا السرّ.

حين بات في فراشه ليلة الهجرة، لم يكن فقط يُغطّي غياب الجسد، بل كان يُثبت استحقاق الحضور.

وحين حمل لواء خيبر، لم يكن يُقاتل بالسيف فحسب، بل كان يفتح باباً في الغيب لمن يأتي بعده.

مُحَمَّدٌ نور بابه عَلِيٌّ

وحين بكى في حضرة رسول الله ﷺ في دعاء، لم يكن يبكي عاطفة،
بل كان قلبه يتمدد ليتسع لما سيودع فيه.

السند الباطني لا يُدَوَّن في الكتب، بل يُسجَّل في القلوب.

ولذلك، فالطرق الصوفية التي تلقّت من الإمام عليّ، لم تكن تبحث
عن شرعية ظاهرية، بل عن النبع الذي لم يتلوّث، والسلسلة التي لم
تقطع، والسرّ الذي بقي حيّاً في أهل الله، يتنقل من صادقٍ إلى
صادق، من شيخٍ إلى شيخ، كما تنتقل النار من شمعة إلى أخرى دون
أن تذبّل.

عليٌّ لم يكن فقط أول من أسلم من الفتيان، بل أول من تحمّل سرّ
التربية من النبي ﷺ في شبابه، ثم في تمامه، ثم بعد. ولهذا، كل من
حمل الولاية من بعد، لا بدّ أن يكون له نصيب من عليّ في الصبر، وفي
الحب، وفي الشجاعة، وفي الفهم، وفي السجود الطويل، وفي البكاء
الصامت.

فما من طريق إلى الله يسري فيه النور، إلا وفي أعماقه شيء من أثر
عليّ.. وما من شيخ صادق، إلا وفي عمقه وميض من ذلك السند
الباطني، الممتد من يد محمد ﷺ، إلى قلب عليّ، إلى من صدق السير
في هذا الطريق.



سؤال: عن علوية الكسنزانية

ما صلة الطريقة الكسنزانية بالامام علي عليه السلام؟

الجواب: حين يُسأل عن صلة الطريقة الكسنزانية بالإمام علي عليه السلام، فإن الإجابة لا تُختصر في الحكايات المنقولة، بل تُفهم من باب النور نفسه، لأن السلاسل قد تُكتب وتُروى، أما النور فلا يُكتب، بل يُشاهد ويُذاق، ولا يصل إلا لمن صفا واستعد وتطهّرت باطنه للقبول.

الطريقة الكسنزانية، وإن كان ظاهر نسبها موصولاً بالسلسلة القادرية، إلا أن باطنها يحمل سرياناً حيّاً لنور العهد العلوي، لا بالخطاب بل بالفعل، ولا في القول بل في الذوق.

هذا النور لم ينقطع، بل ظلّ يتجلى عبر من حملوه صدقاً، وورثوه لا بحروف الورق، بل بسرّ الحال. والطريق الكسنزاني في جوهرة مرآة عصرية لبابٍ قديم، هو باب الإمام علي، الذي لا يزال يُربّي ويهدي من خلال من فني فيه، وتجلى به، وتحقق بأدبه، في كل زمنٍ وحين.

في هذه الطريقة، لا يُعرَف عليّ من خلال الدراسة التاريخية، بل من خلال التجربة الحية. فالمرید إذا صدق، ورأى شيخه بعين القلب، أدرك أنه ليس مجرد مربٍّ أو حافظٍ لسلسلة، بل حاملٌ لنفْسٍ من نفوس عليّ، ووجهٍ من وجوه التربية العلوية. فإذا دخل الحضرة، رأى في هيئة الشيخ سَكينةً مألوفة، وإذا سمع الذكر، سمع فيه شيئاً من نفْسٍ محراب الكوفة، وإذا تهَيَّأ للبيع، شعر أن اليد التي تُصافحه تمتد من يدٍ أخرى، ومن أخرى، حتى تتصل بذلك الباب الأول.

وهكذا، فإن السؤال عن كيفية وصول النور العلوي إلى الكسنزانية لا يُجاب عنه باوراق السند الروحي فقط، بل يُجاب عنه بما يُحدِثه

الطريق في قلب السالك. لأن النور حين يسري، لا يستأذن، وإذا دخل، لم يعد المرید في حاجة إلى إقناع. فالتغيير الذي يحدث في الداخل، والطهارة التي تتسرّب إلى الأفق، والصدق الذي يُستثار في النفس، كلّها شواهد على أن النور الذي بدأ من عليّ لا يزال يجري في هذه السلسلة، متخفّياً في بساطة الظاهر، جليّاً في عمق الأثر.

الكسنزانية، بهذا المعنى، ليست مجرد امتداد اسمي، بل استحضار فعلي لعهدٍ كان، ولحضورٍ لا يغيب. وما بين الشيخ عبد الكريم، الذي فتح باب الخلوة من جديد، إلى السلطان الحاضر، الذي وسّع ظلّ التربية وفتحها للعالم، يمتد خيطٌ من العهد الصامت، فيه من النور ما لا يُقال، ومن المهابة ما لا يُحتمل، ومن الرحمة ما لا يُنكر.

فالذي يصل بين الإمام علي والطريق الكسنزاني، ليس سنداً محفوظاً فقط، بل حالٌ يُعاش، وعهدٌ يُتنفّس، ونورٌ يُستودع في القلوب التي تأدّبت ودخلت الحضرة تبتها على الله وحده.



سؤال: عَنْ تَمْيِيزِ الْبَابِ الْحَقِّ مِنْ سِوَاهُ

كيف تميّز الوارث المحمدي الحقيقي عن مدّعي النور
في زمن فوضى الوراثة ؟

الجواب: الوارث الحقيقي لا يُعلن عن نفسه، بل يُعلن النور عنه.
فكما لم يقل الإمام عليّ (عليه السلام): "أنا باب المدينة"، بل قالها النبي (صلى الله عليه وآله)، فإن
أول شرط في الوارث الصادق أن يكون إعلانُه من حضرة مصدقة
ومصادقة تشهد له بذلك.

النور لا يُنتج صورة خارجية فقط، بل يحدث تحوّلاً في الوجدان
البشري، يُطمئن القلب، ويوقظ الضمير، ويحدث أثراً يتجاوز حدود
الكلام. وعليه، فالوارث الصادق لا يُعرّف بكثرة أتباعه، ولا ببلاغة خطابه،
بل بالأثر التزكوي الذي يحدثه في قلوب مريديه، ولو كانوا قليلين. وعلى
الجملة يمكن تلخيص علامات الباب في النقاط الآتية:

- الفناء في النور المحمدي
- لا ينطق باسم نفسه، بل يرى نفسه مرآةً لسيدنا محمد (صلى الله عليه وآله)، كما
كان الإمام عليّ (عليه السلام)، لا يستقلّ بذاته، بل يفنيها في الحقّ.
- يربي المريدين ليكونوا شموساً من بعده، كما ربّى الإمام عليّ
أمثال الحسن البصري وكميل بن زياد وعمار وغيرهم.
- الصمت العملي أمام الجدل النظري، فكلما ازداد ادّعاء
المتكلمين، ازداد صمت العارفين، الطريق يُكشف، ولا يُناقش.
- القدرة على التزكية الباطنية، كما كانت لمسة النبي تغيّر حال
القلوب، كذلك الباب الحقيقي يحدث فيك تحوّلاً لا تدري متى
بدأ، ولا كيف اكتمل.

خُلَاصَةُ الْفَصْلِ السَّادِسِ

ليس كل شيخ هو باب

لا يُعَدُّ كلُّ شيخٍ في سلسلة الطريقة بالضرورة "باباً" لمدينة العلم المحمدي، رغم حملهم لسر الطريق، إذ يظلّ الباب مقاماً مخصوصاً لا يناله كلّ سالك.

شروط إعلان الباب

"الباب" هو تجلٌّ خاص لمقام الولاية العظمى، يُعلن عنه حين تقتضي الحكمة ذلك، عبر شروط منها: الحاجة الروحية في الزمان، وظهور الاستعداد الكامل في الشيخ والأمة.

رمزية المدينة

المدينة في الحديث الشريف رمزٌ للعلوم النبوية الثلاثة: الشريعة، والطريقة، والحقيقة، ولا يُدخل إليها إلا من بابها.

أهلية الإمام علي للباب

الإمام عليّ لم يُختَر باباً للنبي ﷺ بسبب القرابة، بل لكمالهِ في العلم والفهم والولاية، مما أهله لأن يكون منفذاً للسر المحمدي.

ضرورة المرور من الباب

الطريقة تُبنى على هذا الباب، فكل طريقة لا تمر من باب عليّ لا تؤدّي إلى المدينة، ولا تصل إلى قلب النبوة.

وحدة الاسم لا النسبة

رغم إعطاء الإذن في عهد الإمام عليّ لكل من الحسين والحسن البصري، لم تُنسب الطريقة لأحدهما، بل حافظت على اسم "الطريقة العليّة"، ما يدلّ على وحدة المسار الروحي.

الكرخي نقطة الالتقاء

الشيخ معروف الكرخي كان نقطة التقاء للجناحين: نسب الإمام الحسين عليه السلام، وروح الحسن البصري (قدس سره)، لكنه لم يُعلن كَبَاب، بل حَمَل السر دون التصريح.

إعلان الشيخ الكيلاني

الشيخ عبد القادر الكيلاني (قدس سره) أعلن عن نفسه بصفته الغوث الأعظم وباب الطرائق، مجدداً إعلان الولاية العظمى في صورة "قادرية".

القادرية استمرار لا تأسيس

لم تكن القادرية طريقة جديدة، بل صورة متجددة للباب نفسه، ارتدت حلّة تتناسب مع الزمان والناس، محافظة على الجوهر العلوي. مرحلة جديدة للبابية

لكنها حافظت على الأصل العلوي، مجسدة وحدة السر وتنوع الأشكال.

تجلي الشيخ الكسنزان

الشيخ عبد الكريم شاه الكسنزان (قدس سره) مثّل تجلياً جديداً للباب العلوي بلا إعلانٍ صريح، بل بالحال والتأثير الروحي الذي لم يُعرف بالكلام بل بالمجالسة.

الكسنزانية حافظة للسرّ

الطريقة الكسنزانية حافظت على سر الباب، وظلّت تربّي بالمحبة والذكر والخلوة، ناقلة النور العلوي في أشكال جديدة، ومؤكدة أن سرّ المدينة لا يُنسى ولا يُغلق..

خُلَاصَةُ الْكِتَابِ

عوداً على بدء، نقول: إن الكتابة عن الإمام عليٍّ عليه السلام، في هذا الزمن المتحوّل، ليست نكوصاً إلى الوراء، ولا اجتراحاً لتراثٍ مقدّس من أجل العزاء الروحي، بل هي عودة إلى النبع الأول، إلى الجذر الذي ما زال يمدّ شجرة الروح بالحياة، والطريق بالنور، والقلوب بالبصيرة.

لقد تبّين في هذا الكتاب أن الإمام عليٍّ لم يكن "شخصاً" مضى، بل "باباً" لم يزل مفتوحاً، ولا تزال الأسرار تتنزل عبره، وأنواره تتفرّع منه، لمن صدق في السير، وأخلص في النية، وتاقت روحه إلى المدينة التي لا تُدخل إلا من بابها.

قرأنا في الفصول الأولى كيف أن الإمام عليٍّ عليه السلام هو الحقيقة العليّة المتجددة في الطريقة الكسنزانية، التي لم تُقصِ النبوة عن عالمنا، بل فتحت باب الولاية ليظلّ السالك متصلاً بالنور المحمدي عبر السلسلة الروحية.

وبحثنا في "قانون رفع التناقض" عن الكيفية التي تستبطن بها النصوص القرآنية إشارات لا تُفهم إلا عبر الباب، وتبين أن النور مخبوء لمن فتح، لا لمن نظر بعين الحرف.

في فصول لاحقة، تأملنا في إشارات القرآن إلى مقام الإمام، ليس بالتصريح، بل بالتلميح، ليس بالاسم، بل بالوصف العليّ، المستبطن في "لسان صدق"، و"الذين آمنوا"، و"العباد المخلصين"، وتكشفت لنا بذلك حقيقة أن الإمام عليٍّ عليه السلام هو المرآة البشرية للأسماء الحسنى، والصوت البشري للكلمة الإلهية.

كما وقفنا على أقوال النبي صلى الله عليه وآله التي تجاوزت المقام السياسي، لتعلن مقاماً روحياً: ﴿أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى﴾، ففهمنا أن

الخلافة ليست منصباً، بل وراثته سر.

وتحت ضوء ذلك، عدنا إلى أصول الطريقة العلوية، فرأينا أن الإمام لم يكن شيخاً مؤسساً بطريقة تقليدية، بل مربّي أرواح، وشاهداً على الحق في زمن الفتنة، وربّاناً للطريق قبل أن تُصاغ الأسماء، وتُدوّن الأوراد.

ومن خلال هذا، توضّح معالم السرّ في السلسلة: أن الباب هو من تتجلى فيه الولاية العظمى، لا من يحمل السند فقط، وأن الإعلان أو الإخفاء، كلاهما من تدبير الحكمة الإلهية، تُظهر السرّ أو تحتجبه بحسب استعداد الزمان واستحقاق الإنسان.

لقد سعيت في هذا الكتاب أن أعيد ترتيب النظر في شخصية الإمام عليّ عليه السلام من زاوية غير مألوفة:

زاوية الباب والسر، لا زاوية منبر السياسة ولا سيف الغزوات.

من زاوية الولاية المتدفقة، لا الصراع التاريخي المجفف.

من عين القلب، لا من غبار الجدل.

القول الفصل عندي: أن الإمام عليّ عليه السلام، بصفته باب المدينة، لم يكن مرحلة انتهت، بل هو استمرارية النور، وسرّ الحضور، وصوت الحق في كل عصر.

وأنه عليه السلام في طريقتنا العلية القادرية الكسنزانية، متجدد حاضر وناظر، جبل الله المتين، الرابط بين السماء بالأرض، بين الغيب والشهادة، والسند الدائم للمريدين والمحبين، بل وللعالمين.

وهكذا، فإن هذا الكتاب لم يُكتب عن الإمام عليّ عليه السلام الماضي، بل عن عليّ الحاضر... عن الباب الذي لا يُغلق.

شهادة

في حق إمام المحبة علي بن أبي طالب عليه السلام

في عمق الخلافات التاريخية المفتعلة، وبجانب ركام كثير من التفسيرات المذهبية المبتورة، يرى أولو البصيرة والحق مولانا الامام علي بن ابي طالب عليه السلام واقفاً بهمة المحبة كرابطٍ خفيّ وجليّ في الوقت نفسه، بين أطراف الأمة المحمدية، بل ويمتد أثره ليشكل جسراً معنوياً بين ملل المسلمين من محمديين وأهل الكتاب، وذلك في ضوء قراءة متجددة تعود إلى جوهر الرسالة، وتستنطق المقامات لا المواقف، والنور لا النزاع.

قبل أن تُحاصر سيرته بحدود المذاهب، أو تُختزل مقاماته في سجلات بعض الفقهاء، كان الإمام عليّ عليه السلام تجسيدا حياً للروح المحمدية، مظهراً للصفاء الرباني في القول والفعل، ومراًة صافيةً تعكس النور الإلهي للناس كافة. لم يكن عالماً لطائفة ولا عنواناً لصراع، بل كان قلباً نابضاً بالحكمة، ولساناً ناطقاً بالحق، ويداً مبسوطة بالعدل، وروحاً معانقةً للخلق بمحبة الله.

كان الإمام علي عليه السلام، في حقيقته، الإنسان الكامل الذي تماهى مع الرسالة، لا بالقول فحسب، بل بالفعل والصدق والسلوك، حتى غدا في الأمة ميزاناً للهداية، ودليلاً لكل سالك إلى الله تعالى.

وقبل أن يُحتكر اسمه المبارك في الانتماءات، وقبل أن يُزجّ بسيرته في صراعات العقائد، كان الإمام علي عليه السلام صوتاً قرآنياً ناطقاً، ومثالاً للمؤمن الكامل الذي حمل العلم، والزهد، والشجاعة، والعدل، والإحسان، ووقف في قلب الدعوة المحمدية كامتدادٍ حقيقيٍّ لها.

كان عليه السلام أول من آمن، وأول من صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم، ووقف إلى جانبه في كل مواقف المواجهة، والوصية، والمكاشفة⁽¹⁾.

هذا المقام لا ينتمي لطائفة، ولا يُحصَر في مذهب؛ بل هو مقام الإنسان الذي اختصه الله بالقرب، وجعله مرآة للنبوة في بُعْدِها الإنساني، وكأنه في فلكها يدور، لا يُفارقها ولا يفترق عنها.

على كل مسلم يحمل في نفسه شعوراً أو في عقله فكراً مجتزئاً عن شخصية الإمام علي عليه السلام أن يعيد النظر والتأمل، فالإمام في حقه وحقيقته حلقة وصل لا موضع خلاف. فالسنة يعترفون بفضله وسبق إيمانه، ويوردون في كتبهم مناقبه المباركة. كما يعدونه رابع الخلفاء الراشدين في سياسة الأمة. أما الشيعة، فيعدونه الامتداد الشرعي والروحي للإمامة، وأنه أول أوصياء الولاية.

1 - عن قيس بن أبي حازم، قال: كنت بالمدينة فبينما أنا أطوف في السوق إذ بلغت أحجار الزيت، فرأيت قوما مجتمعين على فارس قد ركب دابة، وهو يشتم علي بن أبي طالب، والناس وقوف حواليه إذ أقبل سعد بن أبي وقاص فوقف عليهم، فقال: «ما هذا؟» فقالوا: رجل يشتم علي بن أبي طالب، فتقدم سعد فأفرجوا له حتى وقف عليه فقال: «يا هذا، علام تشتم علي بن أبي طالب؟ ألم يكن أول من أسلم؟ ألم يكن أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ألم يكن أزهد الناس؟ ألم يكن أعلم الناس؟» وذكر حتى قال: «ألم يكن ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنته؟ ألم يكن صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته؟» ثم استقبل القبلة ورفع يديه، وقال: «اللهم إن هذا يشتم وليا من أوليائك، فلا تفرق هذا الجمع حتى تريهم قدرتك». قال قيس: فوالله ما تفرقنا حتى ساخت به دابته فرمته على هامته في تلك الأحجار، فانفلق دماغه ومات «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه». [التعليق - من تلخيص الذهبي] 6121 - على شرط البخاري ومسلم. المرجع: الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1411 - 1990، حديث رقم [6121]، ج3 ص571.

ولكن، بين هذا وذاك، هناك مقام أوسع من التصنيف: مقام الباب إلى المدينة المحمدية، الذي لا يُقاس بحسابات السلطة، بل بمعايير السرِّ والوراثَةِ النورانية. وقد اجتمعوا فيه فروى الفريقان: ﴿أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا﴾⁽¹⁾.

بهذا، ينبغي أن يُعاد فهم الإمام علي عليه السلام - عند البعض - لا كرمزٍ لخلافٍ سياسيٍّ، بل كمرجعٍ للتوحيد الروحي، حيث تلتقي المحبة السنيّة والولاء الشيعي، في نقطةٍ يتجلى فيها القلب المحمدي على الأرض، لا ليتفرّق الناس بسببه، بل ليجتمعوا فيه.

أما على صعيد العلاقة مع أهل الكتاب، فإن في شخصية الإمام علي عليه السلام ما يُدهش المتأمل المنصف: فهو لم يخرج من النسق الإبراهيمي ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾⁽²⁾، بل كان شاهداً عليه. لقد قدّم في سيرته صورةً مثالية للعدل الشامل الذي يتخطى حدود الدين والانتماء، ويحمل روح الرحمة الإلهية.

كان يقول: «الناس صنفان: إمّا أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق»⁽³⁾، هذه العبارة وحدها كافية لتكون جسراً مفتوحاً بين المسلمين وغيرهم، بل بين الإنسان وربّه. إنها لا تُقصي، بل تحتضن، ولا تُجرّم، بل تحاور.

1 - من السنة: الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1، 1990م، رقم الحديث [4637]، ج 3 ص 137. ومن الشيعة: السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم، دار الهلال، ج 1 ص 341.

2 - [الحج: 78]

3 - من كتاب له عليه السلام كتبه للأشتر النخعي لما ولاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمد بن أبي بكر، وهو أطول عهد كتبه وأجمعه للمحاسن. نهج البلاغة، مؤسسة نهج البلاغة، خطبة [84]، ج 3 ص 84.

في ضوء ذلك، يظهر الإمام علي عليه السلام ليس فقط كإمامٍ للمؤمنين، بل كصوتٍ نقيٍّ للروح الإبراهيمية في أعَدَل تجلياتها. إنه ذلك الجسر الممتد بين التوراة والإنجيل والقرآن، بين النبوة القديمة والرسالة الخاتمة، بين الإله الواحد وتجليات رحمته على الأرض.

الطريقة الكسنزانية، حين أتخذت الإمام علي عليه السلام بوابة نورية لها، لم تُقم عليه مذهباً، بل أقامت عليه طريقاً. فالكسنزانية لا تراه رمزاً شيعياً ولا أثراً سنياً، بل نقطة البدء في الطريق إلى المدينة النبوية، ومقام السرّ المتجدد في مشايخها، بوصفه الأصل الذي تتفرع عنه السلاسل، ويجري في دماؤها الروحي كالنهر الصامت.

الإمام علي عليه السلام في العقيدة الكسنزانية "باب المدينة" لا لمذهب، بل لحقيقة، ولا لطائفة، بل للطريق ذاته. وكل من سار في هذا الطريق بصدق، فإنما يعبر من تحت رايته، وإن لم ينطق باسمه.

إذا كانت الأمم تُبنى على الجسور لا على الجدران، فإن الإمام علي عليه السلام يمثل أعظم الجسور التي يمكن للأمة أن تتخذها معبراً من زمن الانقسام إلى زمن اللقاء. كيف لا، وهو من الجامع، الذي يشهد له الفريقان، ويحترمه أهل الكتاب حين يُقدّم كما هو: إنساناً ربّانياً، إنساناً كاملاً، ونقطة التقاء بين النور الإلهي والعقل الإنساني.

مولانا الإمام علي عليه السلام إذًا، هو "الاسم الجامع" بين المختلفين، و"الوجه الحي" للمحبة التي لا تُقابل بالخصومة، بل بالرحمة. فمن أراد أن يبنى وحدةً لا تزول، فليبدأ من قلب علي (صلوات ربي وسلامه عليه)، لا من صفحات الخلاف.

إن شهادتنا التي نقدمها هنا: إن الإمام علي عليه السلام ليس ماضياً يُروى، بل حاضرٌ يُدعى إليه، لمن شاء أن يتذوق طعم اللقاء بالله من بوابة القلب قبل بوابة القول.

المراجع والمصادر

- أسباب نزول القرآن، الواحدي، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح - الدمام، الطبعة: الثانية، 1412 هـ - 1992 م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1، 1418 هـ.
- بحار الأنوار، المجلسي، مؤسسة الوفاء، ط2، 1403 هـ.
- البرهان في تفسير القرآن، هاشم بن سليمان البحراني، بيروت - لبنان، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1429 هـ.
- التبيان في تفسير القرآن، محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق: أحمد حبيب قصير، مكتب الإعلام الإسلامي.
- الترمذي، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط1، 1996 م.
- تفسير الجلالين، جلال الدين السيوطي، دار الحديث - القاهرة، ط1.
- تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، قم - إيران، مؤسسة الإمام المهدي، ط1، 1438 هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - القاهرة، 2001 م.
- الجامع الكبير (سنن الترمذي)، الترمذي، حققه وخرج

- أحاديثه وعلق عليه: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، 1996م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط2، 1964م.
- جامع المسانيد، ابن الجوزي، تحقيق: الدكتور علي حسين البواب، مكتبة الرشد - الرياض، ط1، 2005.
- الحاوي للفتاوي، جلال الدين السيوطي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، 2004 م.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، دار الفكر - بيروت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1994.
- روضة الناظر وجنة المناظر، ابن قدامة، تحقيق: عبد العزيز السيروان، دار النفائس، بيروت.
- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: السقا، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1955.
- شرح التبصرة والتذكرة (شرح ألفية العراقي المسماة بالتبصرة والتذكرة)، عبد الرحيم العراقي، تحقيق: عبد اللطيف الهميم وماهر ياسين الفحل، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1423هـ-2002م.
- صحيح البخاري، اعتنى به: دار الكمال المتحدة، الناشر:

- عطاءات العلم - موسوعة صحيح البخاري، 1437هـ. ونسخة: المحقق: د. مصطفى ديب البغا، (دار ابن كثير، دار اليمامة) - دمشق، الطبعة: الخامسة، 1414 هـ - 1993م. ونسخة: دار التأصيل - القاهرة، الطبعة: الأولى، 1433 هـ - 2012م.
- الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، المحقق: عبد الرحمن بن عبد الله التركي - كامل محمد الخراط، مؤسسة الرسالة - لبنان، الطبعة: الأولى، 1417هـ - 1997م.
 - الفوائد الجلية في مسلسلات ابن عقيلة، محمد بن أحمد الحنفي - المعروف والده بعقيلة، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد رضا، الناشر: البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2000م.
 - الكشاف، الزمخشري، محمود بن عمر، بيروت - لبنان، دار صادر، ط 1، 1431هـ.
 - مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي ، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
 - مستدرك الوسائل، الميرزا حسين النوري الطبرسي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، 1988.
 - المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1411 - 1990م.
 - مسند الإمام أحمد بن حنبل، الامام احمد، المحقق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421هـ - 2001م. ونسخة: المحقق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث -

القاهرة، ط1، 1995م.

- المعجم الكبير، الطبراني، حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط2.
- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد البلام محمد هارون، دار الفكر، 1979.
- موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، الشيخ محمد محمد الكسنزان، دار المحبة، دمشق، ط1.
- الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، قم، دار المجتبى، ط1، 1430هـ.
- نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي، تحقيق صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1.
- نهج الحق وكشف الصدق، الحلي، تحقيق: عين الله الأرموي، قم، دار الهجرة.

المحتويات

11.....	المُقَدِّمة
15.....	الفصل الأول: الحَقِيقَةُ العَلِيَّةُ فِي الطَّرِيقَةِ الكَسَنَزَانِيَةِ
17.....	الإمامُ عَلِيٌّ .. التَّارِيخُ الحَاضِرُ
20.....	الإمامُ عَلِيٌّ .. الصُّرُورَةُ المُتَجَدِّدَةُ
23.....	الإمامُ عَلِيٌّ .. أَلْمَزَكِّي المُتَجَدِّدُ
28.....	الإمامُ عَلِيٌّ .. أَسْرَارُ صَيْرُورَةِ البَابِ
32.....	الإمامُ عَلِيٌّ .. عَقِيدَةُ كَسَنَزَانِيَةِ
34.....	خُلَاصَةُ الفَصْلِ الأوَّلِ
37.....	الفصل الثاني: الإمامُ عَلِيٌّ وَقَانُونُ (رفع التَّنَاقُضِ)
39.....	السُّؤَالُ الصَّعْبُ والمُقَدِّمَاتُ العَقَلِيَّةُ
42.....	الدَّلِيلُ الأوَّلُ: الاستِغْفَارُ الحُضُوري
44.....	الدَّلِيلُ الثَّانِي: التَّبِيعَةُ يَدًا بِيَدٍ
48.....	الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: المَحَبَّةُ الإِلَهِيَّةُ
50.....	الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: الوَسِيلَةُ الوَسِيلَةَ
52.....	الدَّلِيلُ الخَامِسُ: الطَّاعَةُ الرَّسُولِيَّةُ
55.....	الدَّلِيلُ السَّادِسُ: الرَّأْفَةُ والرَّحْمَةُ النَّبَوِيَّةُ
57.....	الدَّلِيلُ السَّابِعُ: الصَّوْتُ القَائِمُ فِي الوَارِثِ
59.....	الدَّلِيلُ الثَّامِنُ: التَّرَكِيَّةُ تَرْبِيَّةٌ رُوحِيَّةٌ
61.....	الدَّلِيلُ التَّاسِعُ: لَابَدٌّ مِنْ شَاهِدٍ
63.....	الدَّلِيلُ العَاشِرُ: أَخْذُ الصَّدَقَاتِ
66.....	الدَّلِيلُ الحَادِي عَشَرَ: الهَادِي إِلَى الصِّرَاطِ
69.....	الدَّلِيلُ الثَّانِي عَشَرَ: أَيْمَةُ الهُدَى
71.....	الخَاتَمَةُ: النُّورُ لَا يَنْقَطِعُ، والبَابُ لَا يُغْلَقُ
73.....	خُلَاصَةُ الفَصْلِ الثَّانِي

75..... الفصل الثالث: الإمام علي في عين القرآن الكريم

- 77..... القرآن الكريم والتَّجديدُ في الفهم
- 79..... التَّجديدُ في فهم آية (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)
- 84..... التجديد في فهم آية: (أشداء على الكفار رحماء بينهم)
- 87..... التَّجديدُ في فهم آية: (بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)
- 93..... التَّجديدُ في فهم آية: (وَأَنْفُسَنَا)
- 97..... التَّجديدُ في فهم آية: (وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا)
- 102..... التَّجديدُ في فهم آية: (الْمَوَدَّةُ)
- 110..... التَّجديدُ في فهم آية: (وَالسَّابِقُونَ)
- 114..... التَّجديدُ في فهم آية: (لِسَانَ صِدْقٍ الْآخِرِينَ)
- 121..... التَّجديدُ في فهم آية: (مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ)
- 128..... خُلاصةُ الفصلِ الثالثِ

131..... الفصل الرابع: الإمام علي في عين النبوة

- 133..... التَّجديدُ في فهم رواية: (أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ)
- 137..... التَّجديدُ في فهم رواية: (الرَّايَةُ الْكَرَّارُ)
- 140..... التَّجديدُ في فهم رواية: (عَلِيٌّ مِنِّي وَأَنَا مِنْ عَلِيٍّ)
- 143..... التَّجديدُ في فهم رواية: (عَلِيٌّ مَعَ الْقُرْآنِ)
- 146..... التَّجديدُ في فهم السُّنَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ: (السُّنَّةُ النَّاطِقَةُ)
- 151..... خُلاصةُ الفصلِ الرابعِ

153..... الفصل الخامس: الباب وأصول الطريقة العلية

- 155..... مَنبَعُ أَصُولِ الطُّرُقِ
- 159..... الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: تَلْقِينُ الذِّكْرِ.. أَقْرَبُ الطُّرُقِ إِلَى اللَّهِ
- 165..... الْأَصْلُ الثَّانِي: الذِّكْرُ جَلَاءَ الْقُلُوبِ وَمِفْتَاحُ الْإِنْقِيَادِ
- 167..... الْأَصْلُ الثَّالِثُ: الْمُنَاجَاةُ وَالْكَلامُ فِي ذَاتِ الْعُقُولِ
- 169..... الْأَصْلُ الرَّابِعُ: نُورُ الْيَقِظَةِ فِي الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ
- 171..... الْأَصْلُ الْخَامِسُ: الْإِسْتِمْدَادُ مِنْ نُورِ الْقُلُوبِ
- 173..... الْأَصْلُ السَّادِسُ: الثَّبَاتُ وَالْبَصِيرَةُ الْمُسْتَبِيرَةُ

175.....	الأصلُ السَّابِعُ: الْوَلَايَةُ مَقَامُ الْأَمَنِ وَالْبُشْرَى
177.....	الأصلُ الثَّامِنُ: التَّصِيرَةُ الْبَاطِنِيَّةُ وَالزُّهْدُ الْعُلَوِيُّ
179.....	الأصلُ التَّاسِعُ: التَّوَجُّهُ الْقَلْبِيُّ وَالْإِرْتِبَاطُ الرُّوحِيُّ
180.....	الأصلُ العَاشِرُ: الْأَخْلَاقُ سَبِيلُ الصَّلَةِ بِاللَّهِ
182.....	خُلَاصَةُ الْفَصْلِ الْخَامِسِ
185.....	الفصل السادس : أسئلةٌ مُلَفِّتَةٌ وَأَجوبةٌ مُختَصِرةٌ
187.....	سؤال: عَنِ إِعْلَانِ الْبَابِ وَإِخْفَائِهِ
196.....	سؤال: عَنِ تَعَدُّدِ أَسْمَاءِ الْبَابِ
198.....	سؤال: عَنِ نَقْلِ التَّوَرِّ لَا الْحُرُوفِ
200.....	سؤال: عَنِ نَقْلِ الْوَلَايَةِ مِنَ النُّبُوَّةِ
202.....	سؤال: عَنِ عُلُوِّيَّةِ الْكِسَنَزَاتِيَّةِ
204.....	سؤال: عَنِ تَمْيِيزِ الْبَابِ الْحَقِّ مِنْ سِوَاهُ
205.....	خُلَاصَةُ الْفَصْلِ السَّادِسِ
207.....	خُلَاصَةُ الْكِتَابِ
209.....	شهادة في حق إمام المحبة علي بن أبي طالب عليه السلام
213.....	المراجع والمصادر
217.....	المحتويات

إصدارات الطريقة

- السيد الشيخ السلطان الخليفة محمد المحمد الكسنزان
 - الطريقة العلية القادرية الكسنزانية
 - الانوار الرحمانية في الطريقة القادرية الكسنزانية.
 - جلاء خاطر من كلام الشيخ عبد القادر (قدس الله سره)
 - موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، (24 مجلد)، ط1، دار المحبة، دمشق 2005م.
 - مصطلح الطريقة في الشريعة الإسلامية، ط1، 2006م.
 - التحلي بالآداب الإسلامية في الطريقة الكسنزانية، دار القادري، دمشق، ط1، 2007م.
 - الاوراد الكسنزانية، ط1، 2006م.
- السيد الشيخ شمس الدين محمد نهرو الكسنزان
 - خوارق الشفاء الصوفي والطب الحديث، ط1، 2007م.
 - الرؤى والاحلام في المنظور الصوفي، ط1، 2007م.
 - مصطلح الطريقة في الشريعة الإسلامية.
 - في حضرة الطريق، ط1، 2025م.
- مجلة الكسنزان، مجلة فصلية صوفية ثقافية علمية تصدر عن رئاسة الطريقة العلية القادرية الكسنزانية، ط1- 2006م.